

بمناسبة الذكرى الخمسينية لعودة المغفور له محمد الخامس للعرش
وقبلها ذكرى تأسيس نظام الدروس بجامعة القرويين

محمد الخامس

و

جامعة القرويين

و معه خمس دراسات
في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ

الأستاذ أحمد الحبابي
من علماء القرويين
فاس

الطبعة الثانية – 2009
رقم الإيداع القانوني : 2009/2973.
ر د م ك : 1-992-20-9954-978
جميع حقوق الطبع محفوظة

الحمد لله

الأخ القارئ الكريم :

أرجوك إذا قرأتَ هذا الكتاب واستوعبته،
أن تتفضل فتُهديه إلى أخ لك في الإسلام، ليقرأه
فيتعمق الوعي الإيماني بالحق سبحانه في عقله
وقلبه، وبذلك تكون قد أحسنت إليه وإلى نفسك
وإلى كل من يستفيدُ بعدُ والله لا يضيع أجر من
أحسن عملاً، والكتاب أنفع هدية يُهديها لأخيه
المسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على النبي المصطفى الكريم عبد الحق ورسوله سيدنا محمد الذي خاطبه الحق سبحانه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾¹ وبقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ...﴾².

محمد الخامس و تأسيسه لنظام جامعة القرويين

وبعد، فمن المعلوم عند كل مومن أن الحق سبحانه وتعالى أزلي قديم ليس لأزليته ابتداء، فقد كان ولم يكن معه شيء. وأنه لما أراد سبحانه إحداث هذا الكون بسماواته وأراضيه وشموسه وأقماره وأفلاكه وأملاكه وملائكته وإنسه وجنه كان أول ما خلق الحق سبحانه القلم؛ أعني قلم اللوح المحفوظ، ولما خلقه قال له: اكتب، فقال له القلم: يارب وما أكتب؟ فقال الله تعالى للقلم اكتب مقاديري، فكتب كل ما في علم الله مما سيقع إلى يوم القيامة، ثم سدّ فم القلم، فلم يعد قادرا على الكتابة.

1 - سورة الأنبياء الآية: 107.

2 - سورة القلم الآية: 4.

وإن مما قدره الحق في أزاله وكتبه في لوحه المحفوظ أن جعل المغرب والمغاربة تحت مظلة العرش العلوي المتسلسل من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومن فاطمة الزهراء رِيحَانَةَ النبي ﷺ.

فالله تعالى اختار بحكْمَتِهِ لهذا المغرب أرضا ومغاربة عرشا علويا من سلالة رسوله عليه السلام فابْتَدَأَهُ بمحمد الأول ثم سار به إلى الملك الصالح المصلح محرر البلاد من قبضة الاستعمار الفرنسي وهو الذي ضحى بعرشه في سبيل تحرير أمته جعله الله في الفردوس الأعلى مع من أنعم عليهم من صلحاء عباده.

ثم سار تعالى بالمغرب بحكْمَتِهِ وإرادته إلى أن جعله تحت مظلة الملك، الموفق في جمع أطراف المغرب بسبب المسيرة الخضراء، المغفور له الحسن الثاني.

وإننا إذا احتفلنا بالذكرى الخمسينية لرجوع المغفور له محمد الخامس من منفاه إلى عرشه فإننا نحتفل مع هذا بتفكيره العميق والطويل فيما ستكون عليه أمته في مستقبلها الديني والمعرفي.

ولقد هداه تفكيره الذي أرشده الله إليه أن أنشأ نظام الدروس في جامع القرويين وابن يوسف سنة 1350 هجرية والتي أعلى بها شأنه وشأن بلاده، وبذلك كان النظام من الحسنات التي خلدها المغفور له ليستفيد منها المغرب وغيره في ذلك الوقت وعلى مدى الأزمنة والعصور المقبلة في ميدان العلوم والمعارف الإسلامية.

ولقد تخرج وما يزال يتخرج من هذا النظام الأفواج من العلماء وبسبب أن الله جعل بحكمته وفضله أن بركة السلف تعود على الخلف سيبقى نظام القرويين يخرج العلماء المتخصصين في الدراسات الإسلامية تفسيرا وحديثا وأصولا وخلافا عاليا واستنباطا. وفي علوم اللسان العربي نحوا وبلاغة وبيانا بسهر وتشجيع الإمام الرائد محمد السادس الذي ميزه الحق سبحانه بإنشاء المدارس القرآنية والمعاهد العلمية.

وكان جلاله المغفور له محمد الخامس جعل لنظام جامعة القرويين رئيسا يدعى رئيس المجلس العلمي، وكان هو شيخ الجماعة المغفور له مولاي عبد الله الفضيلي العلوي الذي كان من عمق فهمه وجمال وجمال أسلوبه يحضر دروسه التطوعية غالبية الأساتذة الحاصلين على العالمية للمزيد من عمق فهمه وجمال أسلوبه.

وكثيرا ما كانت دروسه التطوعية في رسالة الوضع ومختصر الشيخ خليل بشرح الزرقاني وحاشية بناني.

وعين المغفور له محمد الخامس للمجلس العلمي أعضاء وكتابا ومراقبين، وعمل مثل هذا مع جامع ابن يوسف بمراكش وجعل للنظام الذي أحدثه فيهما ابتدائيا من ثلاث سنوات، وثانويا من ست سنوات ونهائيا من شعبة شرعية وشعبة أدبية من ثلاث سنوات في كل منهما. وينتهي النهائي بالحصول على العالمية بعد الامتحانات الكتابية والشفوية والتدريس.

استفادة بعض الدول الإفريقية من النظام

وكانت الجارة الجزائر ترسل طلبتها بالمئات ليستفيدوا من علم علماء نظام القرويين فيعطى لهم بيت السكنى مع الخبزة اليومية في ذلك الوقت.

وكان عدد الطلبة الوافدين من السينغال ومالي وموريطانيا قريبا من عدد طلبة الجزائر. وبذلك استفاد طلبة هذه الدول وغيرهم مع طلبة المغرب من علم علماء نظام القرويين جميعَ صنوف المعرفة من تفسير وحديث وفقه ونحو وبلاغة وأصول وخلاف عالي إلى غير ذلك من صنوف المعرفة التي كان جلاله الملك محمد الخامس يرى بأنه يجب أن تكون مشتركة بين جميع الطلبة، يحملونها عن علماء النظام بالقرويين وابن يوسف إلى بلدانهم لتبقى دليلا على عمق تفكير جلالته في الحفاظ على الهوية الإسلامية في هذه البلدان.

وكان من مَن الله تعالى، أن التحقتُ في نفس السنة 1350هـ التي أسس فيها النظام بالقرويين بالسنة الأولى من الابتدائي، فتدرجت في ابتدائها ثم ثانويها ثم نهائيها إلى أن اجتزت امتحان العالمية مع إخواني علماء الشباب لا نفارق حصير القرويين ولا يفارقنا مدة الدراسة.

ومن أجل أن الله أراد أن يجزل ويكثر ثواب المغفور له محمد الخامس وقع إقبالاً كبيراً على الدراسة في النظام حتى ضاقت القرويين

بالحلقات الدراسية فاضطُر إلى نقل حلقات الابتدائي إلى مسجد الرصيف
وبعض المساجد المجاورة للقرويين.

ولم تقتصر العناية المولوية آنذاك على إحداث حلقات للذكور بل
أسس معهداً للفتيات تخرج منه عالمات، وكثيراً ما كان العلماء الذين
يدرسون في القرويين يقومون بنفس المهمة في معهد الفتيات مادة وحِصصاً
ومنهاجا.

ولقد تشرف علماء الشباب أثناء الامتحان للحصول على العالمية
بزيارة أمير المؤمنين محمد الخامس رغم بعد المسافة بين القصر العامر
ومقر الامتحان بخزانة القرويين.

وفي السنة التي حصلنا فيها نحن علماء الشباب على العالمية كان
حصل فيها ولي عهد المغرب آنذاك جلاله المغفور له الحسن الثاني على
الشهادة الثانوية البكالوريا، فأقام جلاله والده له حفلا استدعانا
للحضور فيه إلى جانب ولي عهده فزادنا شعورا وإيمانا بأننا محل عنايته
ورضاه.

وطبيعي وواجب على كل من قرأ في النظام الذي أسسه المغفور له
محمد الخامس فارتوى حتى تَضَلَّعَ من جميع العلوم التي كانت مقررة
حتى أصبح يعرف كيفية استنباط وتصيد الأحكام من كتاب الله وسنة
رسوله.

واجب عليه أن يصطبغ بحبه للعرش العلوي لأن الله تعالى بسبب هذا النظام أخرجهم من ظلام الجهل إلى نور العلم والمعرفة الواسعة التي ينشأ عنها كل خير للإسلام والمسلمين ما بقيت الدنيا. وقد قال تعالى : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾³.

فالإسلام باق بفضل الله ما بقي العرش العلوي، والعرش العلوي بفضل الله باق ما بقي الإسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الأحد، الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وقد كتبها على نفسه للمجتهدين من عباده، ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾⁴ وقد جعل الحق تعالى لنفسه الحجة على الناس بما أرسل لهم من رسل وكتب، فإن عذبهم بسوءهم وجناباتهم فبِعَدْلِهِ عَذَّبَهُمْ، وإن أثابهم بفضله وحلمه وكرمه أثابهم.

والصلاة والسلام على النبي الأمي رسول الخير والشفاعة المعجزة الكبرى الذي أرسله تعالى بين يدي الساعة رحمة للعالمين ﴿ شَهِدْنَا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾⁵. ليَهْدِيهِمْ ﴿ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾⁶ وعلى آله وأصحابه كتَّبة القرآن ونقلته.

وبعد، فهذا كُتَيْبٌ صَغِيرٌ الْحَجْمِ كَبِيرٌ الْفَائِدَةِ وَضَعْتَهُ لِلتَّذْكَيرِ أَرشَدْنِي الْحَقَّ سُبْحَانَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى

4 - سورة الأنعام، الآية: 54.

5 - سورة الأحزاب، الآية: 46.

6 - سورة إبراهيم، الآية: 2.

تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ كتبت فيه خمسَ دراسات في كتاب الله وسنة
رسوله ﷺ، وهي مرتبة كما يلي :

الدراسة الأولى :

وتشتمل على موضوعين :

الموضوع الأول مركب :

1- القرآن كتاب سلام وليس كتاب إرهاب كما يدعي خصومه.

2- الإسلام دين السلام والإحسان إلى البشرية عموماً.

الموضوع الثاني :

عناية الإسلام ومحافظة على دور عبادة الديانات الأخرى.

الدراسة الثانية :

القرآن واللغة العربية

الدراسة الثالثة :

من عمل سوءاً استحق جزاءه من الله إلا من تاب.

الدراسة الرابعة :

لكل غادر يوم القيامة لواءً لغدرته

الدراسة الخامسة :

من هدي سنة الرسول ﷺ حديث البداية وحديث النهاية
لصحيح الإمام البخاري.

والله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يُعطي أحدا من عباده خيرا خلقه
ونسبه إليه تكريما منه تعالى عليه ونعمة، ثم يتكرم تعالى بادخار ثوابه له
إلى يوم القيامة ويجعل له الحسننة بعشر أمثالها.
فالحمد لله تعالى على ما ألهم ووفق وأعطى وضعف واذخر.

الدراسة الأولى

وتشتمل على موضوعين :

الموضوع الأول مركب :

1- القرآن كتاب سلام وليس كتاب إرهاب كما يدعي خصومه.

2- الإسلام دين السلام والإحسان إلى البشرية عموماً.

الموضوع الثاني :

عناية الإسلام ومحافظته على دور عبادة الديانات الأخرى.

وبتداول هذين الموضوعين، أكون قد قمت بإبطال الأكاذيب والتُّرهات التي يُلصقها خصوم الإسلام بكتاب الإسلام ودين الإسلام من أنه دين الإرهاب والقتلة.

وسيكون إبطالُ هذه الاتهامات بآيات من كتاب الله وأحاديث من سنة رسول الله ﷺ، وبهذا سنكون قد دعونا إلى أنه يجب أن يُزيل العالم ويمحو من قاموسه السياسي لفظ العداوة والأعداء ويكتب بدله لفظ المحبة والأحباب والصدقة والأصدقاء.

وبعد الفراغ من الكلام على إبطال ما ادعاه خصوم الإسلام من أنه دين إرهاب وأن القرآن يجب أن تعدل نصوصه أو يلغى منه ما يدل على الإرهاب حسب زعمهم الكاذب.

بعد الفراغ من هذا والفراغ من أدلته أذكر أسماء بعض عقلاء وعلماء اليهود وتراجمهم حيث آمنوا به ﷺ وبكتابه زمن ظهوره عليه السلام بالمدينة بعد الهجرة إذ كانوا قرأوا كتاب التوراة وآمنوا به واهتدوا بهديه وتنوروا بنوره قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ سَحَّكُم بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾⁸.

وقد عرفوا من التوراة صفة نبي الإسلام وكتابه فآمنوا به وصدقوه بمجرد ظهوره ﷺ بالمدينة وبهذا أصبح عقلاؤهم من كبار صحابته عليه السلام.

وأسباب إسلام هؤلاء اليهود كثيرة، منها أنهم وجدوا فيه عليه السلام الرحمة المهداة للعالمين كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾⁹، وقال تعالى في صفة كتابه: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾¹⁰، وقد جعل تعالى دعوته لينة مرنة لا عنف فيها قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ

8 - سورة المائدة، الآية : 44.

9 - سورة الأنبياء، الآية : 107.

10 - سورة إبراهيم، الآية : 2.

بِالْقُرْآنِ مَن سَخَّافٌ وَعِيبٌ¹¹ ، ونهى رسوله عليه السلام عن أن يلزم أحدا ويكرهه على اعتناق الإسلام حيث قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ¹² ، وما تبين الرشد من الغي إلا بسبب الأدلة البصرية الكونية من سماوات وأرضين ونجوم وأفلاك وبسبب الأدلة السمعية القرآنية.

وأخبر تعالى أن الهداية لم يجعلها في يد أحد من خلقه ولو كان من رسله ؛

- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ¹³ ،
- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ¹⁴ ،
- ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ¹⁵ .

وإن دعوة القرآن جاءت لتطهير المجتمعات من القتل والعنف والتسلط، فيجب على علماء الإسلام أن يتماسكوا ويتساندوا حتى يزيلوا بمختلف اللغات من عقول خصوم الإسلام الجاهلين به أن القرآن كتاب إرهاب يجب أن تعدل نصوصه أو تمحي منه كما يقولون عنه، كما يجب

11 - سورة ق، الآية : 45.

12 - سورة البقرة، الآية : 256.

13 - سورة القصص، الآية : 56.

14 - سورة البقرة، الآية : 272.

15 - سورة النحل، الآية : 36.

على علماء الإسلام أن يبينوا ويوضحوا لخصومه محاسنَه، وأنه دين سلم وسلام ومحبة حتى يتزحزحوا عن عداوته وكراهيته.

الكلمة السواء:

وهكذا فيجب علينا أن نقول لهم : كيف يكون كتاب إرهاب والله تعالى يقول لرسوله فيه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾¹⁶، فهو تعالى يدعوهم إلى كلمة يكون فيها عدل وإنصاف وتساو بين جميع الملل من أهل الكتاب : مسلمين ونصارى ويهود لا يتميز فيها أهل ملة عن أخرى، وهي الكلمة السوائية المتعادلة المتكافئة التي لا تسلط فيها لأحد على أحد، تحمل جميع معاني النصفة والإنصاف، وتقبلها جميع العقول والنفوس والجوارح، وهي التي نادى بها وينادي وما يزال ينادى بها القرآن، وهي كلمة التوحيد : «لا إله إلا الله» ولتكون هذه الكلمة أصل الدين للجميع وأصله الأصيل حتى تجتمع عليها جميع الملل، وهي التي أرسل بها الحق سبحانه جميع الأنبياء والرسل.

16 - سورة آل عمران، الآية : 64.

الدعوة إلى الإسلام بالحكمة:

وأیضا كيف يكون كتاب إرهاب والله سبحانه يقول فيه: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ^ط وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^ج إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ^ط عَنْ سَبِيلِهِ^ط وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^ك﴾¹⁷ وقد نزلت هذه الآية بمكة وقت أمر الحق سبحانه لعبده ورسوله، بمهادنة كفار قريش، فأمره عليه السلام أن يدعو إلى دين الله وشرعه بلطف ولين وبدون مخاشنة وبالكلمة التي هي أحسن حتى من الحسننة.

الكلمة الأحسن:

والكلمة التي هي أحسن هي المنطلقة من اللسان الحلو والوجه البشوش الطلق الغير العبوس، ومن النفس الرحيمة المشفقة على عباد الله.

ديانات السماء كلها خير:

وإن كل الديانات التي نزلت من السماء كلها خير للبشرية كلها، لم تأت من السماء إلا للقضاء على جميع الأحقاد والضغائن والظلم بين جميع بني آدم لتكون جميع المجتمعات متضامنة متحابية، وأيضا نزلت من السماء للتعريف بأن الإسلام استسلام لعظمة إله أزلي سرمدي لم

17 - سورة النحل، الآية : 125.

يتقدمه عدم ولن يلحقه فناء، منزّه عن كل نقص، متصف بكل كمال، ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك في ملكه.

دعوة الرسل عامة:

وبهذا جاءت دعوة النبي ﷺ الذي قال له ربه تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾¹⁸ ، كما كانت دعوة جميع الأنبياء والرسل قبل نبينا على جميعهم أفضل الصلوات وأزكى التسليمات عامة للبشرية كلها.

أمره ﷺ بأن لا يضر أحداً من خلق الله:

وأيضاً كيف يُقال إن كتاب الإسلام الذي هو القرآن كتاب إرهاب يجب أن تغير نصوصه أو تُمحي كما يقولون، والله سبحانه لما أمر رسوله بأن لا يطيع الكافرين والمنافقين أمره مع هذا بترك أذاهم والإضرار بهم في نفس الآية، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾¹⁹ ، وبهذا الأمر الإلهي لرسوله عليه السلام أن لا يؤذي أحداً من الكفار والمنافقين لم يؤذ أحداً منهم وإن كان هو ﷺ من جيلته وخلقته الإحسان وعدم الإيذاء.

28 - سورة سبأ، الآية : 28.

19 - سورة الأحزاب، الآية : 48.

وصف التوراة لنبي الإسلام:

ونظير هذه الآية ما رواه الأئمة البخاري ومسلم وأحمد عن عطاء بن يسار، قال: لَقِيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلتُ له: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة، فقال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفِظٍ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْهَوْجَاءَ يَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عَمِيًّا وَأَذَانًا صَمًّا وَقُلُوبًا غَلْفًا ﴾.

وهذا أيضا نظير قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾²⁰.

وأیضا كيف يكون كتاب إرهاب وهو يقول: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾، وأهل الكتاب هم كل من له رسول وكتاب من السماء: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلُؤُا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾²¹، والذين ظلموا من اليهود هم من بقي على كفره، فلم يؤمن بالكتب السماوية

20 - سورة المزمل، الآية : 10.

21 - سورة العنكبوت، الآية : 46.

من توراة وإنجيل ولا قرءان من بني فريضة والنضير، ومنهم الذي جعل لله ولدا فقالوا : ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾²² وقالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾²³ وقالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَحَنُ أَعْنِيَاءُ﴾²⁴ فهؤلاء المشركون من بني إسرائيل هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾²⁵ .

الدعوة إلى الله وإلى العمل الصالح

وأیضا كيف يكون كتاب إرهاب والله سبحانه وتعالى يقول فيه مخاطبا البشرية كلها في أسلوب حواری ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾²⁶ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾²⁶ قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية : أي كلام أحسن من القرآن؟ ومن الداعي إلى الله وطاعته؟ وهو محمد ﷺ، ويدخل في هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولفظ الآية عام في كل من دعا إلى الله وعمل صالحا.

22 - سورة التوبة، الآية : 30.

23 - سورة المائدة، الآية : 64.

24 - سورة آل عمران، الآية : 181.

25 - سورة المائدة، الآية : 78.

26 - سورة فصلت، الآية : 34.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية : الحسنه لا إله إلا الله، والسيئة الشرك.

وقوله تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وإن قيل إنها نُسخَت بآية السيف لكن بقي المُستحبُّ من ذلك : حُسْنُ العِشرة والإغضاء.

وفي الأثر : تصافحوا يذهب الغيظ، وقوله تعالى فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم قال المفسر الكبير مقاتل : نزلت في أبي سفيان ابن حرب كان موزيا لرسول الله ﷺ فصار له وليا في الإسلام حميما بالقرابة والمصاهرة.

ونقل القرطبي في تفسيره²⁷ عن الإمامين البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد ما صنَّعه المشركون برسول الله ﷺ فقال : بينما رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبي مُعَيْط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال بأعلى صوته : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾²⁸ والله إنه لرسول الله، فقال علي رضي الله عنه : والله ليوم أبي بكر خير من يوم مؤمن آل فرعون —يعنى وهو الذي نزلت فيه الآية— إن ذلك رجل يكتُم إيمانه فأمنه الله عليه وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبَدَل ماله ودمه لله عز وجل.

27 - ج : 15 ص : 308.

28 - سورة غافر، الآية : 28.

فأية حضارة أرقى وأسمى من حضارة الإسلام والقرآن وهذا الفكر
الإيماني المتوافق مع ما جاءت به جميع الديانات، إنه دين يجمع جميع
رسالات السماء ولا يفرق بينها.

الاعتراف المتبادل بين جميع الرسل وأممهم

وقد أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يؤمن به سبحانه وبما أنزله
عليه من القرآن وأن يؤمن بجميع الأنبياء وجميع كتبهم التي أنزلها
سبحانه عليهم فقال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ
إِبْرَاهِيمَ ﴾²⁹ إلى آخر الآية، وكما خاطب الله نبيه بهذا الخطاب وأفرد فيه
الضمير خاطب أمته بالخطاب الجمعي بواو الجماعة فقال تعالى: ﴿ قُولُوا
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنَّ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَتْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾³⁰
وقال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾³¹.

29 - سورة آل عمران، الآية : 84.

30 - سورة البقرة، الآية : 136-137.

31 - سورة الشورى، الآية : 15.

والأسباط ولد يعقوب عليه السلام وهم اثنا عشر ولدا لكل واحد منهم أمة .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ ﴾ ، الآية .

قال ابن سيرين : إذا قيل لك هل أنت مومن ؟ فقل : ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ ﴾ الآية .

وأیضا فأنعم بحضارة يقول كتابها : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾³² ، ويقول : ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾³³ .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه : ﴿ إياكم ودعوة المظلوم وإن كانت من كافر فإنها ليس لها حجاب دون الله ﴾³⁴ .

32 - سورة الأنفال ، الآية : 62

33 - سورة طه ، الآية : 111 .

34 - الحديث رقم 2915 .

مرونة الإسلام حتى مع كفار قريش عبدة الأصنام

قال الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾³⁵. وقد وقع ما أخبر به تعالى في هذه الآية فأبدل سبحانه محاربة كفار قريش للنبي ﷺ بالمودة حيث أسلم قوم منهم بعد فتح مكة فخالطهم المسلمون كأبي سفيان بن حرب رأس جيش كفار قريش في بدرٍ وأحد، وكالحارث بن هشام وحكيم بن حزام وغيرهم من زعماء وعبدة الأصنام.

تزوج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان

ولتتقوى آصرة المودة التي أخبرت بها الآية: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ وفق تعالى رسوله ﷺ ليخطب أم حبيبة بنت أبي سفيان لتكون زوجته وضمن زوجاته أمهات المومنين وليصهر إلى والدها فتتقوى المودة.

وكانت أم حبيبة تحت عبد الله بن جحش، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة، أما زوجها فتنصر وسألها أن تتبعه فأبت وبقيت على دين قومها، ولما مات زوجها على النصرانية بعث النبي ﷺ لمن كان ببلد الحبشة إلى النجاشي ملك الحبشة فخطبها منه لنفسه، فقال

35 - سورة المتحنة، الآية : 7.

النجاشي لمن كان ببلده من القرشيين : من أولاكم بالعقد لها؟ فقالوا :
 خالد بن سعيد بن العاص، فقال له : زَوْجَهَا من نبيكم، وأمهرها من عنده
 أربعمائة دينار، ولما علم أبو سفيان وهو مشرك بالزواج قال في النبي ﷺ :
 ﴿ ذلك الفحل لا يُقَدِّعُ أنفه ﴾ وهذا مثلٌ يضرب لمن له عزيمة قوية لا يقف
 في طريقها حائل.

قال القرطبي : فلأنتُ بذلك عريكة³⁶ أبي سفيان واسترخت شكيمته³⁷

ثم قال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ
 وَلَمْ تُخْرِجُوهُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سُحِبٌ
 الْمُقْسِطِينَ ﴾³⁸.

فكيف يكون القرءان كتاب إرهاب وهو لا ينهانا أن نبرّ ونُحسِنَ
 ونعامل باللطف من لم يقاتلنا ويخرجنا من ديارنا من الكفار.
 وبهذا يكون كتابنا عقلانيا لا يأمر بأن يُؤدَى من كف شره ولم
 تظهر منه إساءة، ويأمر بالعقوبة بالمثل لمن أساء إليه. ﴿ وَإِنِّ عَاقِبَتُمْ
 فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ ﴾^ط

36 - يقال : رجل لين العريكة أي سلس الخلق مطاوع منقاد منكسر النخوة.

37 - من شكمه يشكمه إذا رشاه : كأنه سدّ فمه بالشكيمة وهي حديدة اللجام.

38 - سورة المتحنة، الآية : 8.

مرونة الإسلام حتى مع مشركي قريش ومُشركاته

وأكثر المفسرين على أن قوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ﴾ الآية، محكمة لم تُنسخ، واحتجوا بأن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها سألت النبي ﷺ أن تصل أمها حين قدمت وهي مشركة، فقال عليه السلام : نعم صليها أخرجها البخاري ومسلم، وقيل إن الآية فيها أنزلت، ودليل هذا ما رواه عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه طلق امرأته قتيلة في الجاهلية وهي أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فقدمت قتيلة في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وكفار قريش، فأهدت إلى بنتها أسماء قرطاً وأشياء، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله عليه السلام فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ ومنهم قبيلة خزاعة كانوا صالحوا النبي ﷺ ألا يقاتلوه أو يُعينوا عليه أحداً.

ثم وصل القرآن هذه الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ

أَنْ تَوَلَّوْهُمُ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٩﴾ ، فالتولي المنهي عنه أن يتخذهم المسلم أولياء وأنصارا وأحبابا.

كلمة الإرهاب ومعناها المحرّف:

لا يوجد في عموم القواميس العربية، ولا في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ الإرهاب بمعنى القتل، وإنما تدل كلمة الإرهاب دلالة لغوية على التخويف، وفي القاموس: الإرهاب بالكسر الإزعاج والإخافة، وهكذا وردت في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾⁴⁰، أي تخيفونهم بما تستطيعون إعداده من الخيل والرماح والأقواس والنبال، ولو أراد الله بإعداد هذه الأشياء للقتل لقال تقتلون به عدو الله وعدوكم بدل ترهبون.

وخصوم الإسلام إنما أرادوا تخليط أوراقنا العربية ليحرفوا كلامنا العربي، فسموا دين الإسلام دين القتل والإرهابيين ليجدوا ذلك سببا ومبررا ليهجموا على المسلمين الفلسطينيين بطائراتهم وصواريخهم، فهم يهجمون على القرآن ويقولون يجب أن تعدل آياته التي تدل على الإرهاب أو تمحى وتزال.

والعجب أن هؤلاء جاهلون بالقرآن لم يتصوره ولم يعرفوه ومع هذا يقولون إنه كتاب إرهاب والعقلاء يقولون الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

39 - سورة الأنفال، الآية : 60.

40 - سورة طه، الآية : 111.

وكثير من المُفلسين في التاريخ القديم قالوا لرسلمهم مثل هذا الهراء،
وقد حكى الله قول كفار العرب في الإسلام بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا
أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي ۗ ﴾⁴¹.

وكفار اليهود الذين لم يؤمنوا بكتب الله من إنجيل وتوراة وقرآن
هم الإرهابيون الذين يناصرهم العلمانيون على المسلمين الفلسطينيين
والعراقيين وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ۗ ﴾⁴².

إما المعاقبة بالمثل أو الصبر بدون معاقبة:

وتجاوزُ هذا المبدأ القرآني ظلمٌ يعاقب عليه الحق سبحانه، لأن
الله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۗ ﴾⁴³.

وجمهور أهل التفسير يقولون إن هذه الآية مدنية نزلت في التمثيل

بحمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأخيه من الرضاع.

41 - سورة يونس، الآية : 15.

42 - سورة المائدة، الآية : 78.

43 - سورة النحل، الآية : 126.

روى الدارقطني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما انصرف
المشركون عن قتلى أحد انصرف النبي ﷺ فرأى منظرا ساءه : رأى حمزة
بن عبد المطلب شق بطنه ، واصطلم أنفه ، وجُدِعت أذناه فقال عليه
السلام : لولا أن يحزن النساء ، وتكون سنة من بعدي لتركته حتى يبعثه
الله من بطون السباع والطيور ، ثم قال عليه السلام لأمثَلَن مكانه بسبعين
رجلا منهم ، ثم قدمه رضي الله عنه فكبر عليه عشرا ، ثم جعل يُجاء
بالرجل فيوضع وحمزة مكانة حتى صلى عليه سبعين صلاة ، وكان القتلى
سبعين ، فلما دُفِنوا وُفرغ منهم نزلت هذه الآية : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ
بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا
بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ^(١٧٧) **إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** ^(١٧٨) ⁴⁴

قال القرطبي : وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : إنما نزلت
هذه الآية فيمن أصيبَ بظلمة ألا ينال من ظالمه إذا تمكن منه إلا مثل
ظلامته لا يتعداه إلى غيره.

من سُمِّوا أخلاق النبي عليه السلام

أنه إذا مرت به جنازة يهودي قام إليها كما يقوم لجنازة المسلم ،
ففي صحيح البخاري من كتاب الجنائز ، «باب من قام لجنازة يهودي» ،
عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : مرّت بنا جنازة فقام لها

44 - سورة النحل ، الآية : 128 .

رسول الله ﷺ فقمنا به ، فقلنا يا رسول الله إنها جنازة يهودي ، فقال عليه السلام : ﴿ إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها ﴾ .

سُمُوّ عدالة الحق جل وتقدس في حُكْمِهِ بين مخلوقاته في الدُّنْيَا

ويظهر هذا السمو فيما رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ﴿ قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَأَمْرٌ بِحَرْقِ قَرْيَةِ النَّمْلِ . وقد أنكر الله تعالى على موسى : «أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقَتْ أُمَّةً تَسْبِحُ لِلَّهِ»⁴⁵ ! ورواية الإمام أحمد في مسنده⁴⁶ عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَأَمْرٌ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ فِي «أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّمِ تَسْبِحُ لِلَّهِ»!!! ﴾ .

وهكذا عادل الله تعالى في ميزان حكمه بين نملة من نمل العالم وبين رسول من أعظم رسله هو كليمه موسى الذي قال الله له : ﴿ يَمْوَسَىٰ إِنَّيَ أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾⁴⁷ .

وبهذا يظهر أن عدالته سبحانه يُطبَّقها حتى على أنبيائه مع نملة نطن نحن أنها لا شأن لها وأنها من أضعف أجناس خلق الله .

45 - البخاري كتاب الجهاد .

46 - في أول صفحة رقم 403 ج2 مسند الإمام أحمد .

47 - سورة الأعراف ، الآية : 144 .

ومن قصة نبي الله موسى مع نملة قرصته نتعلم مشروعية القصاص وكيفية تطبيقه، ونتعلم السُّمو في نزاهة التطبيق والتساوي، والدقة في تطبيقه بين مخلوقاته تعالى لا فرق بين شريف وقوي وضعيف، ونتعلم كل أحكام القصاص وحكمه من عتاب الحق سبحانه لنبيه موسى عليه السلام.

والتساوي في القصاص واجب لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁴⁸.

فحيث قرصت موسى نملة ينبغي له أن يقتص منها بمثل ما فعلته إذا أمكن وإلا سقط القصاص لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ^ط وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾⁴⁹، وموسى عليه السلام لم يُبقِ القصاص قاصراً على النملة الجانية بل أخرجه من القصاص إلى التعدي على النمل وعلى قريته حيث أمر بإحراق قريته وعلى النمل كله بما فيه من النمل الذي لم تقع منه جناية، وبما فيه من الطعام الذي ادخره النمل في قريته والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾⁵⁰.

وأيضاً موسى تعدى حد القرص بالقرص والنفس بالنفس والعين بالعين كما هو في التوراة إلى الإحراق بالنار، ولا يجوز أن يُحرق بالنار إلا خالق النار.

48 - سورة البقرة، الآية : 229.

49 - سورة النحل، الآية : 126.

50 - سورة الأنعام الآية : 164.

ولو كان موسى عليه السلام فعل كل هذا لكان طَبَّقَ القصاص بالدقة اللازمة التي يقول فيها تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾⁵¹.

وقد أفادت هذه القصة أن النمل أمة تسبح الله وهذا يفيد قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾⁵².

وفي خلق أمة النمل في العالم من الأدلة الكافية في الدلالة على وجود خالق العالم بأفلاكه وأملاكه وشموسه وأقماره بقدرته الباهرة وحكمته الحكيمة ﴿ صَنَّعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾⁵³.

وفي صنعه تعالى أمة النمل بما امتازت به من أسرار صنعها، وكمال دقة خلقها، وخلق أجهزة نموها وأرجلها وهضم طعامها، ومن تدبيرها في جمع طعامها صيفا وخبزها إلى وقت احتياجها إليه شتاء ما يعمق الوعي الإيماني به سبحانه.

وإذا كان الله تعالى قد عاتب نبيه موسى عليه السلام على حرقه قرية النمل فكيف ينجو من عقابه تعالى شرار خلقه الصهاينة الذين يقتلون المسلمين في فلسطين بالجملة والتفصيل.

51 - سورة المائدة، الآية : 45.

52 - سورة الإسراء، الآية : 44.

53 - سورة النمل، الآية : 88.

وكما للنمل قصة وتحاكم مع نبي الله موسى له قصة مع نبي الله سليمان عليه السلام حكاها الله تعالى بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾﴾⁵⁴ ، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ^{٥٥} وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٥﴾﴾⁵⁵ .

قال الرازي : واعلم أن هذه الآية دالة على أن هذا كان شرعا في التوراة، فمن قال شرع من قبلنا يلزمنا إلا ما نُسَخ بالتفصيل قال هذه الآية، حجة في شرعنا، ومن أنكر ذلك قال إنها ليست حجة لنا.

وقد بين تعالى أنه سوى بين النفس والنفس في التوراة، فخالف اليهود ذلك فكانت دية النضيري أكثر، وكان اليهودي النضيري لا يقتل باليهودي القرصي، ويقتل به القرصي، فلما جاء الإسلام راجع بنو قريضة رسول الله ﷺ فحكّم بالاستواء، فقالت بنو النضير: قد حطّطت منا، فنزلت هذه الآية، وكان شرعهم القصاص أو العقوبة، وما كان فيهم الدية. / هـ.

54 - سورة النمل، الآية : 17-18.

55 - سورة المائدة، الآية : 45.

وتعلق أبو حنيفة بالآية فقال : يُقتل المسلم بالذمي .

وقد روى أبو داود والترمذي عن علي رضي الله عنه أنه سئل هل خصك رسول الله بشيء ؟ فقال : « لا إلا ما في هذه الصحيفة ، وأخرج كتاباً من قراب سيفه ، وإذا فيه المومنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يدُّ على من سواهم ، ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذي عهد في عهده» .

إرادة الله تعالى وحكمته فوق كل إرادة وحكمة

وإذا أراد الله جل وتقدس إسعاد قوم فتح قلوبهم وهياها لقبول السعادة .

فكثير من عقلاء اليهود وعلمائهم في زمنه عليه السلام هداهم الله ونور قلوبهم بنور كتابهم التوراة الذي أرسله سبحانه مع كليمه موسى عليه السلام ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾⁵⁶ ، ثم زادهم سبحانه من نوره وإشراقه بعد ظهور النبي الكريم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة بعد الهجرة فأمنوا به وبكتابه القرآن الكريم وبالسموُّ الروحي لرسالته ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ﴾⁵⁷ ، وهكذا تصرفه سبحانه مع العرب الذين أرسل إليهم

56 - سورة المائدة، الآية : 44 .

57 - سورة الصف، الآية : 6 .

النبي ﷺ ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾⁵⁸ ، حسب علمه جل وعلا بما قدره وعلمه في أزله وكتبه قلمه في لوحه المحفوظ، وهكذا مع يهود بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿ فَعَامَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ﴾⁵⁹ .

ثناء الحق سبحانه على اليهود الذين آمنوا بنبي الإسلام

حكى الله تعالى عن جميع أهل الكتاب فقال: ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾⁶⁰ . كما فعلوا مع عيسى عليه السلام إذ حكى الله عنهم بقوله: ﴿ فَعَامَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ﴾⁶¹ ، كما أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾⁶² ، وكما قال: ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾⁶² .

ثم مدح سبحانه وأثنى على الطائفة التي آمنت بنبي الإسلام وبالسمو الروحي له فقال تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾⁶³ ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة فيه وهذا وصفهم الأول

58 - سورة النحل، الآية : 36 .

59 - سورة الصف، الآية : 14 .

60 - سورة آل عمران، الآية : 110 .

61 - سورة الصف، الآية : 14 .

62 - سورة النحل، الآية : 36 .

63 - سورة المتحنة، الآية : 7 .

في هذه الآية، الوصف الثاني والثالث ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يقومون تارة ويسجدون أخرى، فهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا مَحْذَرُ الْآخِرَةِ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ⁶⁴﴾، فهذه آية للعموم، الوصف الرابع ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^ط﴾ الوصف الخامس والسادس ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ قال الفخر الرازي في تفسير الآية :

واعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن يكون المومن تاما وفوق التمام : فكون الإنسان تاما ليس إلا في قوته العملية وقوته النظرية، وكونه فوق التمام أن يسعى في تكميل الناقصين بإرشادهم إلى ما ينبغي ويمنعهم عما لا ينبغي.

والوصف السابع من الأوصاف التي مدحهم الله تعالى بها: ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ خوف الفوت.

ثم وعدهم الحق سبحانه بقوله : ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ^ط وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾⁶⁵.

وقد أخبر تعالى عن آمن من أهل الكتاب في مقام المدح لهم بقوله سبحانه ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا

64 - سورة آل عمران، الآية : 113.

65 - سورة آل عمران، الآية : 113-115.

أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا^{٦٦} أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٦﴾ .

فقد وصفهم الله بصفات أولها الإيمان بالله، ثانيها الإيمان بما أنزله الله تعالى على نبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ، ثالثها بما أنزله على الأنبياء قبله عليه السلام، رابعها كونهم خاشعين لله، خامسها : ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا^{٦٧} ﴾ لا كما كان يفعله أهل الكتاب ممن كان يكتُم أمر الرسالة وصحة نبوته عليه السلام رغم بشارة التوراة بها.

وكذلك أخبر تعالى عنهم بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾ .^{٦٨}

قال المفسر الكبير مجاهد : إنهم ناس من اليهود —وهو أظهر— لقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن، إذا يتلى عليهم القرآن، كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا حيث أنزله كما وعد.

66 - سورة آل عمران، الآية : 199.

67 - سورة آل عمران، الآية : 199.

68 - سورة الإسراء، الآية : 109.

وقيل كانوا إذا تلوا كتابهم وما أنزل على النبي ﷺ، خشعوا
وسجدوا وسبّحوا وقالوا هذا هو المذكور في التوراة وهذه صفته، ووعد الله
به واقعٌ لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام.

بعض أسماء من آمن من اليهود في أول البعثة

وعناصر السمو الروحي في الإسلام وجميع الديانات السماوية
كانت هي الباعث على الإسلام لهؤلاء الذين آمنوا من اليهود، فقد نقل
المؤرخ الكبير ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية،
وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود، فأمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام
ورسّخوا فيه قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا
تبعه إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره
فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
أُمَّةٌ قَابِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ﴾⁶⁹ إلى قوله : ﴿ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

عبد الله بن سلام

كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله كان من يهود بني
قَيْنُقَاع، أسلم أول ما قدم النبي ﷺ المدينة، رُوي عنه أنه لما قدم عليه

69 - سورة آل عمران ، الآية : 113.

السلام المدينة قال : أجمعتُ، فلما تبيّنتُ وجهه صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب فسمعتَه يقول : أفشوا السّلام وأطعموا الطعام.

وعن أنس رضي الله عنه قال: أقبل نبي الله إلى المدينة فاستشرفوا ينظرون إليه، فسمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله، فعجل وجاء : فسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أشهد أنك رسول الله حقا، وأنت جئت بحق، ولقد علمتَ أنني سيدهم وأعلمهم، فسالهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي.

عالم كبير من اليهود قرأ الكتب السماوية ووصف لهم

النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم منهم ثلاثة بسببه

في الإصابة للحافظ ابن حجر قال حدّث شيخ من بني قريضة أن إسلام ثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية، وأسيد بن عبيد إنما كان من حديث ابن الهيبان، وأنه كان يُعلمهم بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام، فلما كانت الليلة التي في صبيحتها وقع فتح قريضة، قال لهؤلاء الثلاثة يا معشر يهود : إنه والله للرجل الذي كان وصّف لنا ابنُ الهيبان، فاتقوا الله واتبعوه، فأبوا عليه فنزل الثلاثة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا، وفي أسد الغابة: أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها قريضة على حكم سعد بن معاذ.

ثناء النبي ﷺ على عبد الله بن سلام

في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص قال : ما سمعت النبي ﷺ قال لأحد يمشي على الأرض: "إنه من أهل الجنة" إلا لعبد الله بن سلام.

وفي التاريخ الصغير للبخاري عن يزيد بن عمير قال : حضرت معاذاً الوفاةً فقيل له أوصنا، فقال : التمسوا العلم عند أبي الدرداء وسلمان وابن مسعود وعبد الله بن سلام الذي كان يهودياً فأسلم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إنه عاشرُ عشرة في الجنة﴾.

وعن عبد الله بن سلام هذا، قال : نزلت في آيات من كتاب الله :

- نزل في : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ۗ ﴾⁷⁰.

- و في : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾⁷¹.

وفي الإصابة عن أسد بن كعب القرظي عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾⁷² ، قال : هم عبد الله بن سلام وأخوه ثعلبة، وسعياً بن أسد ابنا كعب. مات عبد الله بن سلام بالمدينة في قول جميعهم سنة 43.

70 - سورة الأحقاف، الآية : 10.

71 - سورة الرعد، الآية : 43.

72 - سورة آل عمران، الآية : 113.

ومن علماء اليهود الذين سبقت لهم السعادة كعب الأخبار

قال البخاري عن أبي الدرداء: ويقال له كعب الخير، قال عنه معاوية: إن أبا الدرداء أحد الحكماء، ألا إن كعب الأخبار أحد العلماء إن كان عنده لعلم كالبحار، وإن كنا فيه لمفرطين.

قال العباس رضي الله عنه: قلت لكعب الأخبار: ما منعك أن تُسلم في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه؟ فقال: إن أبي كتب لي كتاباً من التوراة فقال لي اعمل به، وختم على سائر كتبه، وأخذ علي بحقِّ الوالد أن لا أفضُّ الختم عنها، فلما رأيتُ ظهور الإسلام قلتُ لعل أبي غيب عني علماً، ففتحتها فإذا صفة محمد وأمه، فجئتُ الآن مسلماً، مات كعبُ سنة 32، قال البخاري: لسنة بقيت من خلافة عثمان.

ومن اليهود الذين سبقت لهم من الله تعالى الحسنى وهب بن منبّه

روى له الإمام البخاري في كتاب الجنائز، باب "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله".

قال البخاري رضي الله عنه : قيل لوهب بن منبه : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ليس مفتاحاً إلا له أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح لك .

وهذا في أصحاب الكبائر الذين ماتوا ولم يتوبوا من كبائرهم .

وفي الطبقات الكبرى لابن سعد ج5، ص: 465 عن عبادة بن الصامت قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : يكون في أمتي رجلان، أحدهما وهب يهب الله له الحكمة والآخر غيلان فتنته على هذه الأمة أشرُّ من فتنة الشيطان، وفي الطبقات أيضا سمعت وهب بن منبه يقول: لقد قرأتُ اثنين وتسعين كتابا كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل، وجدتُ في كلها : «إن من أضاف إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر» مات وهب بن منبه سنة عشر ومائة بصنعاء وله إخوان كثيرون كلهم أسلموا.

الموضوع الثاني من الدراسة الأولى

من ثوابت الإسلام وحتمياته عنايته ومحافظةه على دور العبادات
لمختلف الديانات الموحدة للحق سبحانه.

ومما يدل على اعتناء الإسلام ومحافظةه على دور عبادة الديانات
الأخرى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هُدَّيْتُمْ
صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾⁷³ ، فكانت
هذه الآية إخباراً عن سنة الله في خلقه بأنه يدفع الشر بالخير والأشرار
بالأخيار من أول الخليقة مروراً بجميع الأنبياء وأممهم وأزمنتهم.

فهو سبحانه دفع بنبيه نوح عليه السلام وبمن معه من المؤمنين
﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾⁷⁴ ، رغم طول مدة مكثه فيهم ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ
أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾⁷⁵ ، دافع بهم عبدة الأصنام وعقيدتهم
لتستقر بدلها عقيدة التوحيد.

ودفع بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام عبدة الكواكب والنجوم
لتستقر في الأرض ملة الإسلام وعقيدته ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾⁷⁶ .

73 - سورة الحج، الآية : 40.

74 - سورة هود، الآية : 40.

75 - سورة العنكبوت، الآية : 14.

76 - سورة الحج، الآية : 78.

ودفع بعبده ونبيه داود عليه السلام رغم كونه كان قصيرا ضعيفا
مِصْغَارًا دفع به جالوت الطاغية رغم كونه كان أشد الناس، يهزم
الجيوش وحده ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾⁷⁷، وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فرمى جالوت
بمقلاعه فقتله بعدما سمى الله تعالى فأعانه عليه.

كما دافع الله سبحانه بعبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ وبمن معه
من صحابته المهاجرين والأنصار دفع عبدة الأصنام من كفار مكة وحملة
لواء الشر، من صهاينة خيبر وبني النضير وبني قينقاع من أهل أرباض
المدينة الذين كانوا وما يزالون شرا على الإسلام والمسلمين بسبب جهلهم
لسنة الله في أرضه، وقد قال تعالى: ﴿ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾⁷⁸.
وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبَلُّونَكُم حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُّوا
أَخْبَارَكُمْ ﴾⁷⁹.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَلَنَبَلُّونَكُم حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ
مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾، وإن كان يقتضي علم الله بذلك مستقبلا للتعبير
بالمضارع مع أن علم الحق سبحانه أزلي قديم ودائم مستمر، إن الله لا
يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فالمراد والله أعلم حتى تعلم
ملائكتنا جهاد المجاهدين واستماتتهم وصبر الصابرين منكم فيكونون

77 - سورة البقرة، الآية : 251.

78 - سورة الأنبياء، الآية : 35.

79 - سورة محمد، الآية : 31.

شهداء يسجلون ويكتبون ذلك في صفحات أعمالكم ليكون لكم عند الله بمنزلة الشهادة بالجهاد والصبر.

فهو سبحانه يدفع الأخيار ويوقفهم ليدفعوا الأشرار عقيدة وعبادات ومعاملات، ولذلك كانت هذه الآية إخباراً عن سنة الله وتصرفه في كونه من أول الخليقة مروراً بجميع الأنبياء وأممهم ليلا تفسد الأرض ويتغلب الشر على أهلها : قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾⁸⁰.

ومن أجل هذا عبر القرآن الكريم في الآيتين : آية الحج وآية البقرة بالمصدر "دفع أو دفاع" على القراءتين، لأن المصدر يدل على حدث الدفع مجرداً من الزمان والمكان وإن كان وقوعه لا بد له من زمان ومكان، والمصدر دفع مضاف إلى فاعله الذي هو اسم الجلالة، والناس مفعول به، والتقدير، ولولا أن الله يدفع الناس الأخيار ويسلطهم على الأشرار ليجاهدوهم في كل زمان ومكان لهدمت دور العبادات وفسدت الأرض. فالدفعُ الواقعُ من الأخيار هو من فعلهم وهو من خلق الحق سبحانه وتعالى، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾⁸¹، ولذلك كان سبحانه ذا فضل على العالمين ولولا في الآيتين حرف امتناع لوجود، أي امتنع هدم الصوامع للرهبان والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين، وبالتالي امتنع فساد الأرض لوجود دفع الله الناس.

80 - سورة الحج، الآية : 40.

الدراسة الثانية:

القرآن واللغة العربية

وهي في إخبار الحق سبحانه عَمَّنْ عَشِيَ أَوْ عَمِيَّ عن ذكر الرحمن وفي الإخبار عن عقوبته.

والمقصود بهذه المحطة هو بيان دعوة الحق سبحانه في القرآن الكريم عباده إلى وجوب التمسك بالأصالة العربية والإسلامية حتى لا يَضِيعَ علينا مجدنا وشرفنا ووجدتُنا ﴿ فَأَسْتَمْسِكُ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيَّ^ط إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ^ط وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ⁸² ﴾ .

وإن تمسكنا بكتاب ربنا : القرآن ولغته العربية تمسكُ بأصالتنا التي تُنجينا وتنجي أجيالنا المقبلة من التغريب والتمسيح والتهويد وصدق عليه السلام إذ قال: ﴿كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرب عنه لسانه

81 - سورة الأنفال، الآية : 17 .

82 - سورة الزخرف، الآية : 44 .

فأبواه يهودانه ينصرانه أو يمجسانه⁸³ ، ويُسند هذا الحديث قوله تعالى :
﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾⁸⁴ .

ففطرة الله التي فطر الناس عليها هي الإسلام، وهي صبغة الله
﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾⁸⁵ .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ
ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ
الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾⁸⁶ .

ومن الظالمين لأنفسهم المعتترفون بوجوده سبحانه وتقدس وأنه
الخالق المدير للعوالم المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص، فهم
يعترفون بالقرآن وبالمنزل عليه ﷺ ولكنهم يتشاغلون عن القرآن: عن
قراءته وفهمه وتطبيقه على الشؤون والنوازل التي تنزل بهم فهم لاهون
عاشون عنه.

وهذه الآية الكريمة من أعظم ما يقوى رجاء المؤمن الظالم لنفسه
الذي تغلب عليه الشيطان حتى عمي عن القرآن، ومع كل هذا رحمة
ورأفة من الحق سبحانه بالعموم من عصاة عباده المومنين وصفهم
بالاصطفاء والاختيار من عباده حيث أورثهم وأعطاهم وأرسل لهم القرآن

83 - ذكره السيوطي في الجامع الصغير تحت رقم 6356 ورمز له بالصحة.

84 - سورة الروم، الآية: 30.

85 - سورة البقرة، الآية: 138.

86 - سورة فاطر، الآية: 32.

الكريم لكي يرجعوا عن ظلمهم لأنفسهم إلى كتابه سبحانه في يسر وسهولة وعظيم رجاء في كرمه لهم بغفران ظلمهم لأنفسهم وما وقع منهم من الخطايا وصغار الذنوب.

وقد قسم تعالى في هذه الآية عباده المومنين الذين اصطفاهم واختارهم للإيمان به فأرسل إليهم الكتاب إلى ثلاثة أنواع (1) الظالم لنفسه، (2) المقتصد، (3) السابق، أما الظالم لنفسه وهم الذين سماهم الله في سورة الواقعة "أصحاب المشئمة" ومقتصد وهم الذين سماهم الله كذلك "أصحاب الميمنة".

وقد وصف تعالى الاصطفاء من عباده المومنين والكتاب أي القرآن الذي ورثهم وأعطاهم وحملهم إياه تعالى فقال : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ ثم زاد تعالى الأنواع الثلاثة منةً وتكرماً فقال سبحانه : ﴿ جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُمَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۗ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾⁸⁷ فواو الجماعة في قوله "يدخلونها" وقوله "يملون" للأصناف الثلاثة : الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، على أن لا يكون في الظالم لنفسه كافر ولا فاسق، وهذا ما روى عن كثير من كبار الصحابة منهم عمر بن الخطاب وعثمان وأبو الدرداء، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن مسعود وعائشة رضي الله عنهم. لكن قال أبو الدرداء " سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ﴿ ثم أورتنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فيجيء هذا السابق فيدخل بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما

87 - سورة فاطر، الآية: 33.

الظالم لنفسه فيُحْبَس في المُقَام ويُوَبَّخُ وَيَقْرَعُ ثم يدخل الجنة، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾⁸⁸.

ومن المعلوم أن الكافر والمنافق لم يُصْطَفُوا ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾⁸⁹.

ولما عبّر تعالى في هذه الآية "بأورثنا الكتاب" دلّ المفسرين على أن هذا الإرث المعنوي للكتاب هو كالإرث المادي للميت ويكتفي فيه بمجرد النسب، فيستوي فيه البار والعاق فكذلك هاهنا يكتفي في ميراث الكتاب بعقيدة التوحيد: "لا إله إلا الله" فيستوي الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات جميعهم في الدخول بالميراث إذ العاصون والمطيعون مقرون بالربوبية قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁹⁰.

وقال كعب الأحبار رضي الله عنه في وصف الأصناف الثلاثة:

استوت مناكبهم - ورب الكعبة - وتفاضلوا بأعمالهم.

وقرأ عمر هذه الآية، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له﴾.

88 - سورة فاطر، الآية: 34.

89 - سورة فاطر، الآية: 36.

90 - سورة النساء، الآية: 110.

ومن المعلوم في الإسلام أن المعصية مَرَضٌ معنوي له دَوَاءٌ مركب من التوبة والاستغفار وردَّ المظالم لأهلها.

ولنرجع إلى محطتنا الأولى الآية الكريمة ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾⁹¹ فَجَدُّ وَاللَّهِ أَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا إِجْمَالًا حَتَّى الْعِبَادَةِ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِهِ وَعَلَى وَجُوبِ تَطْبِيقِ جَمِيعِ آيَاتِهِ فِي جَمِيعِ مَوْضُوعَاتِهَا الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِهَا وَجُوبًا وَحِرْمَةً فِي الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ.

وجوب المحافظة على اللغة العربية

ويستفاد من الآية بالضرورة وجوب المحافظة على اللغة العربية؛ لُغَةً ذَكَرَ الرَّحْمَنُ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ لِقَوْلِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾⁹².

معنى ذكر الرحمان

وقد ترجم الحق سبحانه وتعالى كلامه النفسي الأزلي القديم الذي هو ليس بحرف ولا صوت ولا يعتريه ما يعتري كلام المخلوقين من سكوت وتلفظ ترجمه إلى العربية وجعله قرآنا مكتوبا في المصاحف بلفظ عربي لِيَدُلَّ تَعَالَى مِنْ أَرَادَ إِسْعَادَهُ عَلَى عَمُومِ إِرَادَاتِهِ وَقُدْرَاتِهِ وَحِكْمَهُ وَأَخْلَاقَهُ وَرَحْمَتَهُ وَرَحْمَانِيَّتَهُ وَمَلَكُهُ وَمَلَكُوتَهُ وَلِيَدُلَّ جَلَّ وَتَقَدَّسَ عِبَادَهُ عَلَى

91 - سورة الزخرف، الآية: 36.

92 - سورة الزمر، الآية: 22.

ما شرَّعه لهم في العقيدة والعبادات والمعاملات ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾⁹³ ، ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾⁹⁴ ، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ
صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۗ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ
أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾⁹⁵ .

الرباط بين القرآن والعربية

وقد جعل الله تعالى رباطا موثقا بين القرآن ولغته العربية كل واحد منهما يبقى ما بقي الآخر ويتلاشى في الألسن والأذهان ما تلاشى الآخر - لا قدر الله-، فهو ترابطٌ تلازم بين الدال والمدلول، فإذا ما نال أعداء القرآن غرضهم في القضاء على الدال الذي هو اللغة العربية أصابوا هدفهم في القضاء على المدلول الذي هو القرآن وإعجازه وأخلاقه وتشريعاته ووحدة عقيدته.

وأیضا كلُّ منهما حارسٌ وُحدة الأمم الإسلامية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ومن أجل تنازع البقاء الذي جعله الله سنة الحياة وطبيعة كونية فيها بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة والنور والظلام جعل الله اللغة

93 - سورة طه، الآية: 113.

94 - سورة فصلت، الآية: 4.

95 - سورة الزمر، الآية: 22.

العربية والقرآن الكريم حصنا حصينا لوحدة هذه الأمم العربية الإسلامية ما تمسكوا واحتتموا بهما وإن تباعدت وتفرقت أوطانهم.

والله تعالى يقول لرسوله عليه السلام: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ^ط وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾⁹⁶ أي القرآن شرف لك ولقومك من قريش إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم وهو نبي الإسلام محمد ﷺ.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾⁹⁷ ، فإذا نسينا القرآن دالاً ومدلولاً نسينا شرفنا وأصالتنا.

محاربة الكفار للقرآن ولغته

ومنذ ظهور القرآن بلباسه العربي الأبيض الوضاء ونكهته ومذاقه ومدلولاته الإعجازية والتشريعية والأخلاقية والكفار يحاربونه ويحاربون لغته ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾⁹⁸ ، وطبعا من فرق دينه فرق لغته ، وقرئ فارقوا بدل فرَّقوا.

وللناس فيما يعشقون مذاهب، فالفرنسية والإنجليزية والإسبانية تُضايقُ اللغة العربية لغة القرآن والأصالة في أذهان ناشئتنا وأجيالنا في المنزل والمدرسة والشارع وعلى موائد الأكل ويستحسنونها لما فيها من

96 - سورة الزخرف، الآية: 44.

97 - سورة الأنبياء، الآية: 10.

98 - سورة الأنعام، الآية: 159.

التزويق والزخرفة. والآن الأمازيغية وجميع اللهجات الشلحوية، وقد تكون لها أنصار ومُشجعون مُبرمجون عَشَاوا عن ذكر الله وعن الأصالة.

وفي المعاملات التجارية قياسٌ وهو، كلما كثر المضايقون كثرت دواعي الإفلاس نعوذ بالله ونحتمي به من هذه الهجمات.

ومن الحديث الصحيح الذي رواه الأئمة البخاري ومسلم وأصحاب السنن ﴿والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيتها وهي مسؤولة عن رعيته والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته﴾.

قال تعالى: ﴿حَمِّمُوا الْكُتُبَ الْمُبِينِ ﴿٢٠٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكُتُبِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ﴿٢٠٤﴾ ٩٩ .

وأما الكتاب هو الكتاب الجامع لأحوال جميع المحدثات علويها وسفليها حيث سجل تعالى ما يقع في ملكه وملكوته من أول الخليقة.

واللغة العربية التي هي لغة القرآن من حيث إنها هي التي تدل عليه إذ منها يعرف الإعجاز البلاغي والبياني وجميع ما يتعلق بالعقيدة والعبادات والمعاملات والأوامر والنواهي وأحكام الجنائيات وكل مناهج الحياة التي شرعها القرآن للمسلمين.

فإذا جهلنا لغة ذكر الرحمن وجهلنا بها أجيالنا جهلنا ما في القرآن من أخلاق وتشريعات، وفقدنا وحدتنا الإسلامية والعربية، وهذا ما

نشأت عنه الفتن التي نشاهدها صباح مساء في هذه الحياة المضطربة للمسلمين ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾¹⁰⁰.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سيبلي هذا القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهالك، يقرأونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا سنبلع، وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً.

فكل من سلك سياسة التجهيل بلغة ذكر الرحمن يكون تحت طائلة ومشمولا بالوعيد الشديد في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾¹⁰¹؛ لا يفارقه هذا الشيطان، يأمره بكل مفسد الأخلاق ومساوئها ويُنهَاهُ عن كل محاسن الأخلاق ومصلحتها.

المخرج من الفتن كتاب الله

أخرج الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قلت: يا رسول الله ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم،

100 - سورة الأنعام، الآية: 153.

101 - سورة الزخرف، الآية: 43.

وَحُكْم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حَبْلُ الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

وقد كان النبي ﷺ ينهى صحابته في أول زمن ظهور القرآن عن كتابة أحاديثه عليه السلام لِيَلَّا تُزَاحِمَ كِتَابَةَ الْقُرْآنِ ودراسته، ولم يأذن لهم بكتابتها إلا بعد أن اطمأن على القرآن بمعرفتهم مكانته لديهم، والله تعالى يخاطب رسوله فيقول له: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾¹⁰².

والأمر من الله تعالى لرسوله بالاستمسك بالقرآن هو كذلك أمر لأُمَّته إذ ما أرسله سبحانه إلا لهذه الغاية.

بيان قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾

والخِطَابُ في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ هو خطاب للعموم، لأن من موصولة، أي الذي يَعِشُ، وهي مضمّنة معنى الاستفهام بدليل أن لها جوابا وهو «نُقِيضُ له شيطاناً» والقاعدة أن "من" إذا كانت موصولة مضمّنة معنى الاستفهام ودخلت على نكرة كانت للعموم وهي في الآية وإن كانت داخلة على فعل مضارع "يَعِشُ" فهي للعموم، إذ الأفعال كلها من قبيل المطلق والمطلق من قبيل النكرة، إذ هو يدل على عموم الأحوال والأزمان والأمكنة، وبهذا العموم يظهر أن كل

102 - سورة الزخرف، الآية: 36.

من عمي وعشيّ وتشاغل عن ذكر الرحمن الذي هو القرآن في شأن من شؤون حياته كلها ولم يُطَبِّقْهُ في العقيدة أو في العبادات أو في المعاملات، وسواء كان الذي عمي عن ذكر الرحمن مسلماً أو كتابياً، لأن دين الإسلام بكتابه ونبيه عليه السلام دين عالمي جاء لكل البشرية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾¹⁰³، فكل من عشي يعاقبه جل وعلا فيقيضُ له شيطانا يلازمه ولا يفارقه ليوقعه ويدفعه لكل المهالك.

فما معنى قوله تعالى: "يَعِشُ" ؟

الجواب: الآية الكريمة في موضوع عقوبة الحق سبحانه وتعالى لمن يتعمى عن ذكر الرحمان الذي هو القرآن الكريم أو يتغافل أو يتشاغل عنه بشواغله المادية فلا يكون للقرآن عنده شأن، يرتكب المحرمات والموبقات ولا يلتفت إلى زواجه ونواهيها، ولا إلى ما أعدده الله له في الآخرة من عقاب على ذلك إذا لم يتب.

فِيَعِشُ مضارع عشا، وقرأ ابنُ عباس رضي الله عنهما "يَعِشُ" بفتح الشين كعمي يعمى، وعشيّ وعمي متقاربان في الدلالة متفارقان في الدال. ويظهر من الآية والله أعلم أن الإنسان لا يقع في الذنوب والمعاصي إلا إذا كان كمن رَمَدَ، أو كان كمن عَشِيَ، أو كان كمن عمي عن القرآن

103 - سورة سبأ، الآية: 27.

بحسب صِغَرِ الذنب أو توسطه أو كبره، وبحسب تعامله مع القرآن أو انقطاعه عنه.

قال الإمام الرازي في تفسيره: والإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينيه رَمَدٌ ضعيف، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثرَ كان مَيْلُهُ إلى الجِسْمَانِيَّاتِ أَشَدَّ، وكان إِعْرَاضُهُ عن الروحانيات أكمل، كما ثبت في علوم العقل، أن كثرة الأفعال توجبُ حصولَ المَلَكَاتِ الرَّاسِخَاتِ، فينتقل الإنسان من الرَّمَدِ إلى أن يصير أعشى، فإذا واطب على ذلك انتقل إلى كونه أعمى.

وما معنى قوله تعالى: ﴿ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

الجواب أن هذا تشبيهه وتصوير حسي لبيان عقوبة الحق سبحانه لمن عميَ عن ذكر الرحمان فلم يعمل بتشريعه ولا قرأه ولا فهمه ولا تفهمه ولا علمه أهله وأولاده وعشيرته، حيث يعاقبه الله تعالى بأن يهييء له شيطانا يلزمه في حياته أشدَّ ملازمة، فلا يُتَصَوَّرُ أن يفارقه كما لا يُتَصَوَّرُ أن يفارق القَبْضُ الذي هو قِشْرُ البَيْضِ جميعَ البَيْضِ كما خلقه الله منذ أول الخليقة، فكذلك من عشيَ عن ذكر الرحمن يُلْزَمُهُ اللهُ تعالى شيطانا عقوبة له، يأمره بالمنكر وينهاه عن المعروف، وهكذا يُعَاقِبُهُ اللهُ تعالى على المعصية بمزيد اكتساب المعاصي حتى يصير مَدْمِنًا على معصيته الأولى التي عشيَ فيها عن ذكر الرحمان ﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾¹⁰⁴، وقال

104 - سورة النساء، الآية: 38.

تعالى: ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾¹⁰⁵ ، وقال
تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشُرُهُ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ
كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾¹⁰⁶ .

قال القرطبي : ومعنى العيشِ الضنكُ أن الله لما جعل مع الدين
التسليم لله سبحانه والقناعة والتوكل عليه وعلى قسمته كان صاحبه ينفق
مما رزقه الله، وكان المعرض عن الدين يستولي عليه الحرص الذي لا
يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا فيسلط عليه الشحُّ الذي يقبض يده
عن الإنفاق، فعيشة ضنكٌ، وحاله مظلمة، فيقول وكأنه يظن أنه لا ذنبَ
له : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾¹⁰⁷ .

ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه :

إِنَّ الَّذِي رُزِقَ الْيَسَارَ فَلَمْ يُصِْبْ * حَمْدًا وَلَا أَجْرًا لِغَيْرِ مُوَفَّقٍ
وقال تعالى في معنى الآية : ﴿ وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾¹⁰⁸ .

105 - سورة الجن ، الآية : 17.

106 - سورة طه ، الآية : 127.

107 - القرطبي ، ج 11 الآية : 257.

108 - سورة فصلت ، الآية : 25.

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝۱۰۹ ﴾ .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم أُرِيَ في حياته ما لقيت أمته من بَعْدِ وفاته فما زال مُنْقَبِضًا ما انبسط ضاحكا حتى لَقِيَ الله عز وجل ، ولعل هذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ۝۴۱ ﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ۝۶۲ ﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝۱۱۰ ﴾ .

فكل من عشي وعمي ولم يقرأ ولم يتعمق ذكرَ الرحمن الذي منه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝۴۲ ﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝۱۱۱ ﴾ .

والوكيل هو القائم والحافظ، والمقاليد هي المفاتيح أو الخزائن.

كل من عشي عن هذا كيف يفهم أن الآية من أعم عمومات الحق الصادقة التي لا مبالغة فيها ؟

وعلى هذا فكل ما هو موجود في الكون العلوي من سموات ونجوم وأفلاك وأقمار وملائكة ورياح وغير ذلك هو سبحانه عالم مطلع عليه

109 - سورة الحديد، الآية: 16.

110 - سورة الزخرف، الآية: 41.

111 - سورة الزمر، الآية: 62.

داخل في عموم ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ١١٢ له
مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ الآية.

وكذلك كل ما هو موجود في العالم السفلي من أرضين وجبال
ومثاقيلها، وبحار ومكاييلها وإنسان وجن ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾¹¹² ، وهذه الآيات أيضا من أعم العمومات
الصادقة.

وأنواع الحيوانات والنبات والطيور والطائرات وكل ما أبرزته
واخترعته أخيرا إرادة وحكمة وقدرة الحق سبحانه وصنعتة المتقنة من
هواتف سلكية واللاسلكية لنقل الأصوات والصور والألوان إلى أقصى
البلدان، والكمبيوترات والمسجلات والإنترنت، والأقراص المضغوطة التي
تسع آلاف الكتب، الكل من خلق قدرته سبحانه لا يخرج عنها شيء من
المخلوقات.

وكل من يعتقد أن هذه الأشياء المحدثه هي من صنع المخلوق ولا
دخل لقدرة الحق في صنعها يجعل لله تعالى شريكا في ملكه ولم يُصَدِّقْ
بعموم الآية ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وبالتالي يُقَيِّضُ الحق سبحانه
وتعالى له شيطانا يكون قَرِينَهُ يُزِينُ له الإِشْرَاقَ به سبحانه، لأن الإنسان
إنما هو سبب في صُنْعِ كل المحدثات والحق سبحانه هو الخالق للسبب
والمسبب.

112 - سورة آل عمران، الآية 5.

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَاتَقْنُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾¹¹³ ، ومعنى جامدة قائمة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما أي واقفة غير متحركة، وهي في الحقيقة تسير سيراً حثيثاً كالسحاب في الدنيا نظن أنه واقف وهو يسير.

وكذلك أطلعنا الله تعالى في آيات من ذكر الرحمن على أحوال جبال الأرض بعد قيام الساعة فقال تعالى: ﴿ وَدُوسَتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾¹¹⁴ ، ومعنى "بُستَ الجبال" أي فتتت كما يبس الدقيق أي يُلْتُ، والبسيصة: السويق، ومعنى مُنْبَثًّا: متفرقا.

وقال تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾¹¹⁵ ، والعهن: الصوف الذي ينفش باليد فيصير كالهباء.

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾¹¹⁶ ،

وقال تعالى: ﴿ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾¹¹⁷ .

113 - سورة النمل، الآية: 88.

114 - سورة الواقعة، الآية: 5-6.

115 - سورة القارعة، الآية: 5.

116 - سورة الفجر، الآية: 21.

117 - سورة النبأ، الآية: 20.

فالإعجاز العلمي العمومي في القرآن الذي يحمل أكثر مما يحمله
الكمبيوترات والأقراص المضغوطة يظهر بوضوح في الآيتين ﴿ اللَّهُ خَلِقُ
كُلَّ شَيْءٍ ﴾ و ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

عواقب الفاحشة

وإذا أردنا أن نطبق قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ
نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وجدنا جزئيات ومنتسعا في التمثيل
لنواهي الحق سبحانه.

منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ
سَبِيلًا ﴾¹¹⁸ وما كان الزنا فاحشة إلا لغاية الفحش فيه والقبح، ولكثرة
المفاسد الناشئة عنه التي منها تفكك الأسر وتفجر الأرحام: ببنات وأبناء
لا يُعرف لهم نسب ولا تقوم بهم في المجتمعات قائمة، فاقدوا حنان
الأمهات ورعاية الآباء ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾¹¹⁹.

فإذا وضع الرجل نطفته في غير الزوجة الحلال كان النبات خبيثا
نكدا ﴿ وَالَّذِي خُبثَ لَا تَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا ﴾¹²⁰ ناشئة فاسدة في أخلاقها
تسبُّ الرب تعالى وتلعن الدين وتتناول المخدرات ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي

118 - سورة الإسراء، الآية: 32.

119 - سورة البقرة، الآية: 223.

120 - سورة الأعراف، الآية: 58.

فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿١٢١﴾ .

وقد فتح الله بجلده وكرمه لكل عاص باب التوبة فقال تعالى:
﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾¹²²

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾¹²³ وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾¹²⁴ .

التطفيف خديعة وخيانة

سألني رفيقي، هل سورة المطففين في كتاب الله لا تعني إلا تحريم التطفيف في المكيال والميزان وسائر ما يكال به ويوزن؟ وما هو التطفيف، ومتى نزلت هذه السورة؟ فأجبتة:

هذه السورة كانت أول ما نزل على النبي ﷺ ساعة نزوله بالمدينة مهاجراً إليها من مكة.

والتطفيف وإن كان مأخوذاً لغة من الطف الذي هو الشيء القليل توعده الله عليه بالويل فقال تعالى: ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ وكان التطفيف

121 - سورة النور، الآية: 2.

122 - سورة الزمر، الآية: 54.

123 - سورة النمل، الآية: 11.

124 - سورة الفرقان، الآية: 70.

الذي هو سرقة الشيء القليل من الكيل أو الميزان آفة اجتماعية وخيانة كانت شائعة في أهل المدينة قبل البعثة حرمها الإسلام أوّل ما حرّم في المدينة ليبيّن المجتمعات الإسلامية طاهرة من الخيانات وإن كانت قليلة لا يُعبأ بها في أعرافهم قبل الإسلام.

ومعنى "اكتالوا" اشترى السلعة بالكيل ومعنى "كالوهم" باعوا لهم بالكيل، ومعنى "يُخسرون" يوقعونهم في الخسارة بسبب التطفيف.

والآية إنما هددت بالويل على التطفيف في الكيل والميزان لأنه كان السائد والشائع في أهل المدينة، وإلا فالتطفيف أنواع إذ كل نقص فيما شرعه الله في كتابه يسمى تطفيفا.

فالنقص من الوضوء والنقص من الغسل من الجنابة والنقص من فروض الزكاة وغير ذلك يسمى تطفيفا يقع تحت طائلة التهديد بالويل في قوله تعالى: ﴿ وَيَلِّ الْمُطَفِّفِينَ ﴾ إذ يمكن أن نفهم من حرمة التطفيف حرمة كل نقص فيما حدده التشريع للقاعدة الأصولية التي هي "سبب النزول لا يُخصّص" فالمراد بالمطففين جميع من لا يأتي بالأشياء على صورتها التي جاء بها الإسلام بل يأتي بها ناقصة: وزنا أو كيلا أو وضوءا أو صلاة أو بيعا وشراء، قال الإمام مالك: «لكل شيء وفاءً وتطفيف» نقله عنه القرطبي.

ولا يسرق ويطفف من المكيل والميزان أو في العبادات أو المعاملات وفي سائر ما حدده الحق سبحانه في كتابه أو في سنة نبيه عليه السلام إلا من كان كمن عَشِيَ وَعَمِيَ عن ذكر الرحمن: القرآن الذي منه قوله تعالى:

﴿ وَيَلِّ الْمُطَفِّينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٧﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٨﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٩﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٠﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ ﴾¹²⁵.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٩﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ استفهام إنكار وتعجيب ووصف ليوم القيامة الذي يقوم فيه الناس للعرض والحساب بأنه يوم عظيم، وهو اليوم الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُ تَخَسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾¹²⁶.

قال الألويسي: وصحَّ من رواية الحاكم والطبراني وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ: ﴿خمسٌ بخمسٍ﴾، قيل يا رسول الله: وما خمسٌ بخمسٍ؟ قال: ﴿ما نقض قوم العهد إلا سلط الله تعالى عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله تعالى إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس القطر عنهم﴾.

125 - سورة المطففين، الآية: 6.

126 - سورة الجاثية، الآية: 29.

الدراسة الثالثة :

كل من أساء لغيره، استحق العقوبة من ربه

أخي المسلم إذا أردت أن يحفظ الله سبحانه عليك صحتك ومالك وكل من تحبه وما تحبه فلا تُسيء لأحد من خلق الله فإنه سبحانه يقول في كتابه الكريم: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا مُّجْزِ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾¹²⁷.

والآية تخبر بتعميم العقوبات على مختلف أنواع السوء من مختلف البشر بحيث لا يبقى أحد من غير أن يعاقب على ما حصل منه من سوء حتى على صغيره: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾¹²⁸ ، ﴿ يَبْنِيْ اِيَّاهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰۤاْتِ بِهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ ﴾¹²⁹ ، ولقمان في هذه الآية أراد أن يعلم ابنه مقدار عظمة الحق سبحانه في إحصائه على عباده كل ما فعلوه من طاعات أو ما فعلوه من سوء ليجازيهم.

والخردلة وإن كان البشر لا يدرك لها ثقلًا لشدة خفتها فإن الله يدركه ويثيب عليه إن كان طاعة ويعاقب عليه إن شاء إن كان سوءًا

127 - سورة النساء الآية : 123.

128 - سورة الزلزلة الآية : 8.

129 - سورة لقمان الآية : 16.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ^ط وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ¹³⁰ ، فهو سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا.

ويؤخذ حُكْمُ الله تعالى بتعميم العقوبة على عمل السوء من تعبير القرآن ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا مُجْزِئًا بِهِ ﴾ حيث هذه الجملة فيها "من" الشرطية و"سوءاً" النكرة، والقاعدة أن النكرة إذا كانت في سياق الشرط دلت على العموم، فيصير المعنى كل من يعمل سوءاً يجزئ به ويستحق عقوبة عليه. وهذا إخبار من الحق سبحانه، وأخبار الحق سبحانه صادقة لا مبالغة فيها.

سوء الكافر والمنافق وعقوبته

وصفه القرآن حيث قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِيرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ¹³¹ .

وحيث قال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ ¹³² ، وذلك زيادة على عقوبتهم بما يعاقب به المومنون على ما

130 - سورة النساء الآية : 40.

131 - سورة النساء الآية : 136.

132 - سورة الفتح الآية : 13.

صدر منهم من سوء ﴿ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ^ط
وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ¹³³ .

ويظهر والله أعلم أن ما يعاقب به المومنون على سوء عملهم من أمراض ومصائب هي جوائز تجبر لهم ما أصابهم كالعظم ينكسر ثم ينجبر فيثابون عليها، وأن ما يعاقب به الكافرون والمنافقون هي جوائز لينجزروا بها وليس لهم ثواب إذا لم ينجزوا بها واستمروا على كفرهم.

وكذلك وصف القرآن الكريم عقوبتهم بقوله ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ¹³⁴ .

وكذلك قال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْضَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ¹³⁵ .

كل هذه الآيات تدل على أن عذاب الكفار والمنافقين في الآخرة هو أشدُّ، وأشقُّ، وأخزى، وأكبر من عذاب الدنيا.

133 - سورة الرعد الآية : 34 .

134 - سورة الزمر الآية : 26 .

135 - سورة فصلت الآية : 16 .

سوء المومن وعقوبته

مِنْ سُوءِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُعَاقَبُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا إِعْرَاضُهُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ فِي الدُّنْيَا وَجَهْلُهُمْ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَعَجَزَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنَّا آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾¹³⁶.

وَحِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا مُّجْزِ بِهِ﴾ كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَاضِرًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ السَّكِينِيُّ: ﴿أَلَا أَقْرَأُ عَلَيْكَ آيَةَ نَزَلَتْ عَلَيَّ الْآنَ؟﴾ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَلَمَّا قَرَأَهَا السَّكِينِيُّ لَمْ أَعْلَمْ إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ انْفِصَامًا فِي ظَهْرِي حَتَّى تَمَطَّاتُ لَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَالِكُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟﴾ قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا؟ وَإِنَّا لَمُجْزِيُونَ بِكُلِّ سُوءٍ عَمَلْنَاهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَمَّا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ الْمُؤْمِنُونَ فَتَجْزُونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقُوا رَبَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ذُنُوبٌ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَيُجْمَعُ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾¹³⁷.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا مُّجْزِ بِهِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَبَلَغَتْ

136 - سورة الأنعام الآية : 157.

137 - أخرجه الترمذي وغيره عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

منهم ما شاء الله تعالى، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال العليل: ﴿سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنْ فِي مَا أَصَابَ الْمُسْلِمَ كَفَّارَةٌ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكِمَهَا وَالنَّكْبَةَ يُنْكِبُهَا﴾¹³⁸.

وروي أن امرأة سألت عائشة رضي الله عنها عن ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا مُجْزِئًا بِهِ﴾ الآية، فقالت: ما سألتني أحدٌ عنها منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: ﴿يا عائشة، هذه مُبَايَعَةُ اللَّهِ لَمَّا يُصِيبُهُ مِنَ الْحُمَى وَالنَّكْبَةِ وَالشُّوْكَةِ حَتَّى الْبِضَاعَةِ يَضَعُهَا فِي كَمِّهِ يَفْقِدُهَا فَيَفْزَعُ فَيَجِدُهَا فِي عَيْنَيْهِ، حَتَّى إِنْ الْمُؤْمِنُ لَيَخْرُجُ مِنْ ذَنْبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التَّبَرُّجُ مِنَ الْكَبْرِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾¹³⁹، فهو سبحانه لا يعاقب إلا على سوء صدر منهم.

أقول: فلو أن الحياة الدنيا كانت خالية من السوء لكانت كجنة النعيم أكلها دائمٌ وظلها، ولما كان فيها أحزانٌ وأمراض، ولكن إرادة مولانا فوق كل إرادة وحكمته فوق كل حكمة، ولذلك كل من فعل ذنبا استحق عقوبة، ولا يجمع الله لعبده المؤمن بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾¹⁴⁰، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه

138 - النكبة : المصيبة.

139 - سورة البقرة الآية : 95.

140 - سورة الشورى الآية : 30.

استبشارا بعد تَأَثَّرٍ من قوله تعالى: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا مُجْزِئًا بِهِ ﴾ هذه أرجى آية في كتاب الله، وإذا كان يُكْفِّرُ عني بالمصائب ويعفو عن كثير، فما يبقى بعد كفارته وعفوه!!! وقد ورد هذا المعنى عن النبي ﷺ.

فأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي ﷺ ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ حيث قال السليمان: ﴿ يا علي ما أصابكم من مرضٍ أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، فالله أحلم من أن يُعاقب به، بعد عفوه ﴾.

قال الحسن لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: ﴿ ما من اختلاج عرقٍ، ولا خدشٍ عودٍ ولا نكبةٍ حجرٍ إلا بذنبٍ ولما يعفو عنه الله أكثر ﴾.

وبعض علماء سلفنا الصالح كانوا يتمنون أن يعاقبوا بمرضهم على ما وقع منهم من سوء خوفًا من أن تؤجل عقوبتهم إلى الآخرة، لأنهم يعلمون أن عذاب الآخرة أشق وأشد وأكبر وأخزى.

قال الحسن¹⁴¹ دخلنا على عمران بن حصين فقال رجل لا بد أن أسأله عما به من الوجع، فقال عمران: يا أخي لا تفعل فوالله إنني لأحبُّ الوجع، ومن أحبه كان أحبَّ الناس إلى الله قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾، فهذا فبما كسبت يدي وعفؤ ربي عما بقي أكبر.

141 - الحسن البصري 21-110 هجرية كان حبر الأمة في زمانه وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء والشجعان الثسك ولد بالمدينة وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب، قال الغزالي عنه: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء وأقربهم هديا من الصحابة وله كلمات سائرة وكتاب في فضائل الصحابة.

قال عكرمة ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها، أو لينال درجة لم يكن يوصله إليها إلا بها.

فالزلازل وامتداد مياه البحر لإغراق القرى والدور والأنفس وما يصيب الله تعالى به عباده من أمراض ومآسي كلها جعلها الله عقوبة لعباده على معاصيهم ومختلف آثامهم في الدنيا ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾¹⁴².

وقيل لأبي سليمان الداراني ما بال العقلاء أزالوا اللوم عن أساء إليهم؟ قال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.

ومما يدل على أن ما يقع للمؤمن من النكبات والأمراض يكفر الله له بها السيئات ما حكاه القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ عن نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما لما صحبه من مكة إلى المدينة قال له: لا تمرّ بي على المصلوب يعني ابن الزبير، قال نافع فما فجنه في جوف الليل إلا أن صكّ بمحمّله جدعه يعني الجدع الذي صلب ابن الزبير عليه بعد قتله، فمسح عينيه ثم قال: يرحمك الله أبا خبيّب، أن كنت، ولقد سمعت أباك الزبير يقول: قال رسول الله ﷺ:

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ في الدنيا أو في الآخرة فإن يك هذا بذاك فهيه ، قال القرطبي قال الترمذي أبو عبد الله : أما في التنزيل فقد أجمله فقال : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فدخل فيه البر والفاجر والعدو والولي والمومن والكافر ثم ميز رسول الله ﷺ في هذا الحديث بين المؤمنين فقال : يجز به في الدنيا أو في الآخرة ، وليس يُجمع عليه الجزاء في الوطنين .

ألا ترى أن ابن عمر قال : فإن كان هذا بذاك فهيه ، معناه أنه قاتل في حرم الله وأحدث فيه حدثا عظيما حتى أحرق البيت ورمى الحجر الأسود بالمنجنيق فانصدع حتى ضُيَّبَ بالفِضَّة فهو إلى يومنا كذلك ، وسمعَ للبيت أنين آه آه ، فلما رأى ابنُ عمر فعله ثم رآه مقتولا مصلوبا ذكر قولَ رسول الله ﷺ ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ثم قال : ﴿ إن يك هذا القتل بذاك الذي فعله فهيه وكأنه جوزيَ بذلك السوء ﴾ .

أقول إن الأمانة العلمية توجب أن أنقل من "البداية والنهاية" لابن كثير ما يلي :

ثم قال : واستمرت أيام الخليفة عبد الملك حتى ظفر بابن الزبير سنة ثلاث وسبعين حيث قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بمكة بعد محاصرة طويلة اقتضت أن نصبَ المنجنيق على الكعبة من أجل أن ابن زبير لجأ إلى الحرم فلم يزلْ به حتى قتله ، ثم عهدَ بالأمر إلى بنيه الأربعة بعده : الوليد ثم سليمان ، ثم يزيد ثم هشام بن عبد الملك اهـ .

وبهذا يظهر الفرق بين ما قاله القرطبي وما نقلناه عن ابن كثير في
"البداية والنهاية".

وقد استثنى الله تعالى في كتابه الكريم من عموم قوله: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا مُجْزِ بِهِ ﴾.

والاستثناء معيار العموم كما يقولون - كل من قبل وصيته تعالى وعمل
بها من عباده في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ^ط ﴾ ¹⁴³.

حيث قال تعالى في الآية الموالية: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ^ط وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي
كَانُوا يُوعَدُونَ ^ط ﴾ ¹⁴⁴ فأخبر تعالى أنه تجاوز عن سيئات هؤلاء وجعل
وعده لهم بهذا التجاوز صادقا.

ف"وَعَدَ" مصدر مؤكّد لما قبله، أي وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل
من محسنهم ويتجاوز عن سيئتهم وعدّ الصدق، ولا يجمع الله للمومن
المسيء بين عقوبتي الدنيا والآخرة.

143 - سورة الأحقاف الآية : 15.

144 - سورة الأحقاف الآية : 16.

الدراسة الرابعة

لكل غادر يوم القيامة لواء لغدرته

وهو بحث للمناقشة بين هيئة المجلس العلمي

قبل طرح هذا الموضوع، أقترح على المجلس العلمي المحلي بفاس أن نسمي اللجنة الثقافية من هذا المجلس باللجنة العلمية لتُناسبَ انتماءنا إلى المجلس العلمي الأعلى في معناه وعنوانه عن طريق وزارة الشؤون الإسلامية سيما وقد زكى الله تعالى لفظ العلم فأورده سبحانه في كتابه الكريم بكثرة وبجميع الصيغ. وقال تعالى لرسوله عليه السلام: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾¹⁴⁵ ، ولم تنل الثقافة عند الله تعالى هذه الحظوة في كتابه تعالى إلا مرة واحدة حيث ذكرها في سورة الأنفال في قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّهْمُ فِي الْحَرَبِ فَشَرَّدَ بِهِم مِّنْ خَلْفَهُمْ ﴾¹⁴⁶ ، ولم يقل تعالى لرسوله : وقل رب زدني ثقافة.

والموضوع الذي سأطرحه إن شاء الله ليناقد في المجلس إنما يتصل بالعلم والعلماء ولا يتصل بالثقافة في الجملة.

145 - سورة طه، الآية : 114.

146 - سورة الأنفال، الآية : 58.

وأیضا سنناقش فی هذا البحث أكبر عالم من علماء المغرب الذي یفتخر به المسلمون فی المشارق والمغرب.

فنرجو الله أن یكون هذا البحث سببا فی انطلاقنا جميعا إلى فضاء واسع فی الإثراء الفكري الإسلامي الواسع الذي یجب علينا أن نتعاون فیه حتی نؤدي واجبنا فی میادين الإسلام الرحبة، وحتى نُبقي للمجلس العلمي صبغته وشرفه ولا یفقد أهمیته فی میدان البحث العلمي.

أما البحث المهم والهادف إلى تمحیص سنة رسول الله ﷺ وإبعاد ما یمكن أن یكون أُدرج فیها مع العلم بأنه لا یمكن شرعا ولا یصح هذا التمحیص إلا بعد البحث الشدید والمناقشة لرأي أبي بكر ابن العربي¹⁴⁷ الذي سأنقله لكم من فیض التقدير للمناوي.

هذا البحث هو أنني وجدت فی صحیح الإمام مسلم بشرح الإمام النووي حدیثا - فی كتاب الجهاد والسير "باب تحريم العَدْرِ" - له أكثر من عشرة أسانید یرفعونه إلى النبي ﷺ، منهم سیدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، وخادم رسول الله ﷺ سیدنا أنس بن مالك، وأبو سعید الخدري رضي الله عنهم وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

147- الإشبیلی أصلا ولد سنة 468 وفي طلبه للعلم تنقل إلى بغداد والشام وغيرهما ولقي عددا كثيرا من علماء الإسلام الكبار، وممن أخذ عنه أبو الفضل عیاض وغيره ونقل عنه الإمام القرطبي الكثير فی تفسیره وتوفي سنة 548 هـ منصرفه من مراکش وحمل میتا إلى فاس حیث أقبر بها یرحمه الله رحمة واسعة.

وسأذكر لكم نصوص متن الحديث حتى أعينكم على البحث فيه ،
وأجعل في آخرها نص المتن الذي هو مجال البحث والمناقشة.

صيغ نصوص الحديث كما في صحيح مسلم

1- الصيغة الأولى: إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع
لكل غادر لواء فليل هذه غدرة فلان بن فلان.

2- الصيغة الثانية: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: ألا
هذه غدرة فلان.

3- الصيغة الثالثة: لكل غادر لواء يوم القيامة.

4- الصيغة الرابعة: لكل غادر لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان.

5- الصيغة الخامسة: لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به يقال هذه
غدرة فلان.

وهذه الصيغ كلها عن عبد الله بن عمر يرفعها إلى النبي ﷺ
فيقول: "قال رسول الله ﷺ".

6- الصيغة السادسة: لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به ، وهذه

عن أنس يرفعها كذلك إلى النبي ﷺ.

7- الصيغة السابعة: لكل غادر لواء يوم القيامة يُرفع له بقدر غدرته، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أميرِ عامة، وهذه عن أبي سعيد يرفعها إلى النبي ﷺ.

8- الصيغة الثامنة: وهي المعنية بهذا البحث عن أبي سعيد أيضا: لكل غادر لواء عند استه¹⁴⁸، وقد خالفت هذه الرواية كل الروايات، حيث زيد فيها «عند استه» ولم تُذكر هذه الزيادة لا عن عبد الله بن عمر ولا عن أنس بن مالك ولا عن أبي سعيد الخدري في إحدى الروايتين عنه ولا عن الإمام أحمد في روايته عن عبد الله بن مسعود.

قال المناوي في كتابه فيض القدير في تفسير هذه الزيادة بمعنى أنه يُلصقُ به ويُدنى منه دنوا لا يكون معه اشتباه لتزداد فضيحته وتتضاعف إهانتُهُ، ويحتمل أن يكون عند دُبْرِهِ حقيقةً.

قال المناوي: وقال ابن العربي: يزيد الشهرةُ به وهي عظيمةٌ في النفوس كبيرة على القلوب، يخلق الله عند وجودها من الألم في النفوس ما شاء على قدرها، وما يخلق من ذلك في الآخرة أعظم، ويزيد في عِظَم اللواء حتى تكون الشهرةُ أشدَّ، وإنما كان عند استه لتكون الصورتان مكشوفتين: الظاهرة في الآخرة والباطنة في الخلقِ انتهى.

148- والاسْتُُّ بالهمزة الوصلية: الدُّبْرُ، قال ابن مالك في ألفيته في خصوص ما سمع بهمزة الوصل: وفي اسم استِ ابن منْ سُمِعَ.

أقول وكيف هذا؟ والله أرأفُ بعباده المومنين والله يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ

سُوءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾¹⁴⁹.

وبهذه الشدة والتزيد فيها من ابن العربي يظهر أنه مبالغ في كلامه على الحديث بهذه الرواية.

ومن عجيب الصدف وحسنها دلالة على يسر الإسلام للترغيب فيه أنني قرأت عند الإمام مسلم قبل صيغ الحديث وبتصال بها في أولها أن النبي ﷺ قال: ﴿يسرّوا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا﴾.

فهذا اللفظ البشع الذي هو «عند استه»، يظهر لي والله أعلم أنه مدرج في الحديث أدرجه أحد رجال سلسلة الحديث، فيكون مكذوبا على النبي ﷺ ومكذوبا على الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وأیضا هذا اللفظ يُعسر الإسلام وينفر منه، وإلا فيكفي في النهي عن الغدر والتشهير بمن غدر أن يقال: لكل غادر لواء على قدر غدوته يعرف به يوم القيامة بغير زيادة اللفظ البشع الذي نقول إنه يستحيل على النبي عليه السلام أن ينطق به، لأن منطقه ﷺ كان دائما شريفا.

ومما يدل على أن هذا اللفظ البشع لم يقله ولم ينطق به عليه السلام أن إحدى الروایتين عن أبي سعيد ليس فيها «عند استه».

149 - سورة النساء، الآية : 110.

وأيضاً لم تقع في الروايات كلها عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولا عن أنس بن مالك، ولا عند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، ومن هنا يؤخذ على ابن العربي وهو العالم الفذ انتصاره للرواية التي فيها زيادة «عند استه» وتعصبه لها واعتناؤه ببيانها وتوضيحها كما ظهر لكم فيما نقله عنه المناوي في كتابه فيض القدير، ج5 ص: 287، رقم الحديث: 7325.

أما صحيح الإمام البخاري الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى فقد ذكر الحديث في كتاب الفتن عند باب إذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه بالسند إلى نافع قال: لَمَّا خَلَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ جَمَعَ ابْنُ عُمَرَ حَشَمَهُ وَوُلْدَهُ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ﴿يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ غَدْرًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَبَايَعَ رَجُلًا عَلَى بَيْعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُنْصَبُ لَهُ الْقِتَالُ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْكُمْ خَلَعَهُ وَلَا بَايَعَ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا كَانَتْ الْفَيْصَلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ انْتَهَى.

وأما سنن الترمذي فقد ذكره فيها في أبواب السَّيْرِ 27 باب ما جاء أن لكل غادر لواء يوم القيامة.

1630 عن نافع عن ابن عمر قال؛ سمعت رسول ﷺ يقول: ﴿إِنَّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

قال الترمذي في الباب عن علي وعبد الله بن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وأنس، وهذا حديث حسن صحيح.

وأما سنن ابن ماجة فقد ذكره في كتاب الجهاد¹⁵⁰ تحت رقم 2872 بالسند إلى أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ﴾.

وذكره أيضا تحت رقم 2873 عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّهُ يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ﴾.

وَأَثَرَ هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ ابْنُ مَاجَةَ: فِي الزَّوَائِدِ: فِي إِسْنَادِهِ عَلِيٌّ بْنُ زَيْدِ بْنِ جَوْعَانَ¹⁵¹ ضَعِيفٌ.

ويظهر أنه ربما كان إقحاماً «عند استه» في الرواية عن أبي سعيد الخدري عند الإمام مسلم وغيره من هذا الرجل الضعيف الذي قالوا عنه إنه يقلب الأحاديث والذي هو علي بن زيد بن جدعان.

ومن أجل هذا ظهر لي أن قوله «عند استه» ليس من كلام النبي عليه السلام وإنما أدرجه فيه علي بن زيد بن جدعان الراوي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه سيما وقد قال أطباء الحديث في علي بن زيد بن جدعان: إنه يقلب الأحاديث¹⁵².

150 - الجزء 2.

151 - الصواب جُدَعَانَ.

152 - من تهذيب التهذيب ص: 327 العسقلاني.

وقال: ذكره العُقيلي في الضعفاء.

وفي "سير أعلام النبلاء" للذهبي في الترجمة رقم 82: وُلِدَ أَعْمَى كَقَتَادَةَ، وكان من أوعية العلم على تشيع قليل فيه وسوء حفظ يَغُضُّهُ من درجة الإِتقان، قال أبو زرعة وأبو حاتم فيه: ليس بقويّ.

وقال البخاري وغيره: لا يُحْتَجُّ به، وقال ابن خزيمة لا أحتج به لسوء حفظه وقال شُعْبَةُ حدثنا علي بن زيد وكان رفَّاعاً، وقال مرة: حدثنا قبل أن يختلط، وقال حدثنا حمادُ بن زيد، أنبأنا علي بن زيد وكان يَقلِبُ الأحاديث، وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: ضعيف.

وقال الإمام الذهبي عنه أيضاً: قلتُ: قد استوفيت أخباره في "الحيوان" وغيره، وله غرائب ومناكيرُ لكنه واسعُ العلم.

وقال الجريري: أصبح فقهاءً البصرة عُميانا: قتادة وابن جدعان، وأشعتُ الجذاعي.

ويظهر لي أن ابن العربي ربما كان له حساسيةٌ مع والي الأندلس فكان يكتب "العريضة" مُنْفَعِلاً إذ لما زاد المُقْحِمُ «عند استه» زاد ابن العربي تفسيراً فاحشاً بعيداً عن النطق النبوي الشريف فقال: «يُرَكِّزُ» سيما وموضوع الحديث هو غدر الوالي والعقوبة عليها.

وعلى هذا فعلى من صادق شيطانه والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾¹⁵³.

وعلى من جعل إلهه هواه والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾¹⁵⁴.

وعلى من أطاع نفسه والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾¹⁵⁵ أن يرجع من غدرته قبل فوات الأوان فيصبح يوم القيامة من النادمين يركبه الذل والهوان حاملا لواء غدرته ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾¹⁵⁶ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ¹⁵⁶.

فالواجب على كل مؤمن أن يُنفذ الشروط والعهد التي التزمها، لأن النبي ﷺ يقول: ﴿ المسلمون على شروطهم ما لم يحلوا حراما، أو يحرموا حلالا، فإن لم ينفذ الشروط والعهد كان غادرا ﴾، والله تعالى يقول: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾¹⁵⁷.

153 - سورة فاطر، الآية: 6.

154 - سورة ص، الآية: 26.

155 - سورة يوسف، الآية: 53.

156 - سورة الشعراء، الآيتان: 88-89.

157 - سورة النحل، الآية: 91.

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾¹⁵⁸

وفي كتاب المظالم من صحيح الإمام البخاري أن النبي ﷺ قال: ﴿ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَالْأَخِيَةَ عَلَيْهِ مَظْلَمَةً ﴾.

وفيه قال رسول الله ﷺ: ﴿ من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون ديناراً ولا درهماً، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ﴾.

ولنرجع لتعاليم الإسلام حتى يعلم الغادرون أن الله تعالى رحمةً بعباده ولطفاً بهم فتح لهم باب التوبة من جميع معاصيهم بشرط أن تكون توبتهم خالصة لا يعودون منها إلى غدرهم ومعاصيهم ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾¹⁵⁹ ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾¹⁶⁰ ، ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾¹⁶¹ .

158 - سورة الإسراء ، الآية : 34.

159 - سورة التحريم ، الآية : 8.

160 - سورة النساء ، الآية : 110.

161 - سورة آل عمران ، الآية : 133.

الدراسة الخامسة :

حديثان من هدي سنة رسول الله ﷺ حديث ابتداء به
وحديث أنهى به الإمام البخاري صحيحه ﷺ

وقد علم أن الله تعالى قيض ووكل وهياً عبر تاريخ الإسلام للسنة النبوية من العلماء من يحفظها على الأمة الإسلامية موثقة في صحاح كتب السنة مع القرآن مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُدِ حَافِظُونَ ﴾¹⁶².

وعلم أن في طليعة العلماء الذين قاموا بهذا الواجب حافظ الإسلام ورأس الجهابذة النقاد الأعلام، شيخ الحديث وطبيب علله في القديم والحديث، أبا عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه البخاري الجعفي المولود سنة 194 هـ حيث ألف كتابه جامع الصحيح الذي أجمعت الأمة على أنه أصح كتاب بعد كتاب الله لما اشترطه فيه لقبول الحديث، من شروط بلغت الذروة في الاحتياط والتوثيق خوفاً من أن تخالط سنة رسول الله ﷺ أحاديث ضعيفة أو موضوعة مكذوبة على النبي ﷺ.

162 - سورة الحجر، الآية : 9.

وحيث إنني أرجو ممن يعطي من واسع كرمه من الأجر والثواب لعباده على قدر حسن نيتهم وإخلاصهم فإنني أرجو من الله أن يعطينا على البدء والنهية لصحيح الإمام البخاري، ولذلك أضفت إلى حديث النهاية حديث البداية.

ومن المعلوم أن الدين عموماً يقوم على إخلاص العبودية لله سبحانه في جميع الأعمال والأقوال والتصرفات بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾¹⁶³، ولذلك استهل الإمام البخاري صحيحه بحديث: ﴿إنما الأعمال بالنيات﴾ ليدل على حصر أعمال العباد وبنائها كلها على النيات، فمن أخلص عمله في الطاعات لله من غير رياء ولا تسميع ولا قصد دنيوي قبل سبحانه عمله وأثابه عليه أعظم ثواب، ومن أشرك في طاعته مع الله غيره كان داخلاً في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾¹⁶⁴.

الحديث الذي افتتح به الإمام البخاري صحيحه

حيث قال: « حدثنا الحميدي عبد الله بن الزبير قال: حدثنا سفيان قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري، قال: أخبرنا محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول: سمعت عمر بن

163 - سورة البينة، الآية: 5.

164 - سورة الحج، الآية: 31.

الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
﴿إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى
الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها
أو إلى امرأة ينحكها فهجرته إلى ما هاجر إليه﴾ قال الحافظ: قال أبو
عبد الله : ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من
هذا الحديث، واتفق جماعة من علماء سلفنا الصالح على أنه ثلث
الإسلام.

وأما الحديث الذي أنهى به الإمام البخاري صحيحه فقد قدم
عليه من كتاب الله تعالى آية الموازين التي هي قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ
الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾¹⁶⁵ ، لتساند هذه الآية
الكريمة الحديث النبوي الشريف من حيث أن الله تعالى يتفضل على من
شاء من عباده فيثقل موازين أعمالهم بالكلمتين الحبيبتين إليه سبحانه
إذا أكثروا من ذكرهما في الدنيا مع فهم معناهما.

والله سبحانه لم يخلق عباده سُدى هَمَلا لا تحصى عليهم
أعمالهم وأقوالهم لتوزن عليهم يوم القيامة؛ ﴿ أَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
سُدًى ﴾¹⁶⁶ ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾¹⁶⁷ ،

165 - سورة الأنبياء، الآية : 47

166 - سورة القيامة، الآية : 36

167 - سورة الذاريات، الآية : 56

والعبادة طاعة لله فيما أمر ونهى ، والله تعالى يُحصي على عباده أقوالهم وأفعالهم وجميع تصرفاتهم ويجعل للإحصاء وسائله الكثيرة منها ما تُسَجَّلُهُ على العباد ملائكته سبحانه في صحف أعمالهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٨﴾ 168 .

وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنَ عليكم﴾ وذلك لتكون البشرية مُنضَبَةً في مجتمعاتها بعيدة عن الانزلاق في مزالق الشرور.

وكذلك ما يسحقه ويحصيه على عباده في كتب أعمالهم ويُظهره عليهم يوم القيامة انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبِيرَهُ فِي غَنَقِهِ ۗ وَخُجِرْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٤﴾ 169 .

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ 170 .

وجعل سبحانه جوارح عباده وغيرها شاهدة عليهم إذا أنكروا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١﴾

168 - سورة ق، الآية : 17 .

169- سورة الإسراء، الآية : 13 .

170 - سورة الجاثية، الآية : 29 .

حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧١﴾ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۗ قَالَُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۗ ﴿١٧١﴾ ، والله تعالى ينذر ويخوف عباده في آية الموازين بكثرتها كثرة لا يعلمها إلا الله خالقها حيث ذكرها بصيغة الجمع فقال: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ ﴾ ، وكذلك ينذرهم ويخوفهم بالدقة في موازين أعمالهم حيث وصف الموازين بالقسط فقال ﴿ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ والقسط هو غاية دقة الميزان وما يوزن فيه ، ولعل عدد الموازين التي يضعها الله يوم القيامة على عدد البشر الذين يحاسبهم الله فتثقل موازينهم بالحسنات التي عملوها في الدنيا فأحصيت لهم ، وتخف بالشرور والمعاصي التي عملوها في الدنيا فأحصيت عليهم فتخف وتطيش بها موازينهم ، قال تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿١٧٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٢﴾ ، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿١٧٣﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٧٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا

171 - سورة فصلت، الآية : 21.

172 - سورة الأعراف، الآية : 9.

كَلِحُونَ ﴿١٧٣﴾ ، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٦٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٧٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٦٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿١٦٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٧٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١٧١﴾ .¹⁷⁴

والغاية من القسط والدقة في الموازين ذكرها الله تعالى في قوله :

﴿ فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾¹⁷⁵ .

وقد أجمع أهل السنة على وجوب الإيمان بالموازين يوم القيامة وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة لثبوت ذلك بالكتاب والسنة، فمن لم يؤمن بوزن الأعمال كان من الذين يؤمنون ببعض الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿ أَفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۗ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ ۗ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾¹⁷⁶ .

وما جاء من أن أعمال العباد توزن هو من العام الذي دخله التخصيص، إذ المؤمن الذي لا سيئة له وله حسنات كثيرة يدخل الجنة بغير حساب ولا ميزان، وكذا ذرية المؤمنين الذين تفضل عليهم الله فألحقهم بأبائهم لإيمانهم يدخلون الجنة بغير حساب لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ

173 - سورة المؤمنون، الآية : 104.

174 - سورة القارعة، الآية : 6-11.

175 - سورة الأنبياء، الآية : 47.

176 - سورة البقرة، الآية : 85.

عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿١٧٧﴾ ، وكذلك الكافر وإن
 قدّم في الدنيا أعمالاً صالحة يدخل النار من غير ميزان لأن الإيمان شرط
 في قبول الأعمال الصالحة لقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
 فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾¹⁷⁸ .

وهناك فريق ثالث تستوي حسناته وسيئاته فلا تثقل هذه ولا
 تلك، وهؤلاء يوقفهم الله تعالى على سور بين الجنة والنار، فإذا نظروا إلى
 أصحاب الجنة قالوا سلام عليكم: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ
 النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾¹⁷⁹ ، وبعد أن يوقفهم الله
 على السور مدة يتكرم عليهم سبحانه فيدخلهم الجنة.

وبالنظر إلى موازين الدنيا ومكاييلها فإن الله تعالى يرشد عباده
 ويهديهم فيقول: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾¹⁸⁰ وَزِنُوا
 بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾¹⁸⁰ .

فالقسطاس أعدل الموازين، والقسط مصدر من أقسط إذا عدل والله
 تعالى يقول: ﴿ وَأَقْسُطُوا^ع إِنَّ اللَّهَ تَحِبُّهُ الْمُقْسِطِينَ ﴾¹⁸¹ ، وفي
 الحديث: ﴿المقسطون على منابر من نور يوم القيامة﴾.

177 - سورة الطور، الآية : 21.

178 - سورة الفرقان، الآية : 23.

179 - سورة الأعراف، الآية : 47.

180 - سورة الشعراء، الآية : 182.

181 - سورة الحجرات، الآية : 9.

وفي الصحيح عن أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ في ذكر عيسى بن مريم عليه السلام ﴿يُنزَلُ فِيكُمْ حَكَمًا مَقْسُطًا﴾ ومن أسماء الله الحسنى «المقسط» وهو العادل.

وهذا الاسم العظيم يسير بنا إلى ذكر سمو عدالة الحق سبحانه في حكمه بين عباده في الدنيا كما وقع في حكمه تعالى بين نبيه موسى عليه السلام وَثَمَلَةٌ من نمل العالم كما ذُكِرَ سابقاً.

وأما القاسط فهو الجائر اسم فاعل من قَسَطَ يقسط الثنائي فاللهم اجعلنا من المقسطين ولا تجعلنا من القاسطين.

وعلى هذا فلا تستقيم البشرية وتنضبط وتخلو المجتمعات من شرور الكفر والقتل والغش والنفاق والخديعة إلا إذا عملت بهذه القيم والمثل والتهذيب الخلقي الذي جاء به الإسلام في آية الموازين وغيرها.

فيجب أن نعرف أخي المسلم أنه ستوزن علينا أعمالنا وأقوالنا يوم القيامة في ميزان بالغ في الدقة والصدق فنحاسب عليها، قال تعالى:

﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴾¹⁸² ، وقطعا نُحِبُّ أَنْ لَا تَلْقَىٰ أَنْفُسَنَا فِي النَّارِ

يوم القيامة : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾¹⁸³ ، فيجب علينا أن نزن

أعمالنا وأقوالنا بميزان ما شرعه الله لعباده في كتابه الكريم وما شرعته السنة النبوية في صحاح الكتب، وأن لا نقدم على أمر حتى نعلم حكم الله فيه.

182 - سورة الأنبياء، الآية : 107.

183 - سورة فصلت، الآية : 40.

حديث الختم

7563 حدثنا أحمد بن إشكاب حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن زُرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

وقد أطلق النبي ﷺ الكلمتين على جملتين كما قالوا: كلمة الإخلاص وكلمة الشهادة في: لا إله إلا الله، وكلمة الإخلاص في قل هو الله أحد.

وواضح أن "كلمتان" في الحديث هو الخبر، وحبيبتان نعت لهما وجملتا «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم هو المبتدأ، والتقدير: "سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان.

والمقصود من الحديث بيان رحمة الله وتكريمه على عباده حيث يجازيهم على القول القليل بذكر هاتين الجملتين بالثواب الكثير حيث يثقل تعالى ميزان حسناتهم يوم القيامة وما ذلك إلا لعظمة معنى هاتين الكلمتين عند الحق سبحانه.

وكلمة التسبيح جاءت في كتاب الله بمختلف الصيغ (جاءت بصيغة المصدر الذي لا يدل على زمان أو مكان ولكنه يعم حدثه الزمان والمكان):

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾¹⁸⁴ .

وجاءت بصيغة الماضي ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾¹⁸⁵ .

وبصيغة المضارع ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾¹⁸⁶ .

وبصيغة الأمر : ﴿ سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾¹⁸⁷ .

وفي الآية دليل على أن الاسم هو عين المسمى ، فكأنه تعالى يقول :
سَبِّحْ ذات ربك ونزّهها عن كل نقص ومماثلة .

ويظهر بالاعتماد على فضل مولانا وتكرّمه على عباده سبحانه أن
من قرأ فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص فقد سَبَّحَ في بحور لا تحدها
حدود في التمجيد والتقديس والتعظيم للحق سبحانه سيما إذا أطلع الله
تعالى وفتح بصيرته وعقله وفهمه إلى ما وفقه لقراءته .

فبتمجيد عباده له سبحانه بأنه تعالى هو رب العالمين وخالقهم
وخالق أرزاقهم ومدبر أمورهم —والعالم هو كل ما سوى الله من سموات

184 - سورة الروم ، الآية : 18 .

185 - سورة الحديد ، الآية : 1 .

186 - سورة الإسراء ، الآية : 44 .

187 - سورة الأعلى ، الآية : 1 .

وأرضين ونجوم وأفلاك وأملاك-. ويتمجده بذكر أَحَدِيَّتِهِ، وصَمَدِيَّتِهِ ورحمته ورحمانيته وبتنزيهه عن أن يكون والدا ومولوداً أو أن يكون في مخلوقاته من يماثله في صفاته، وهذا بعض من أسمائه وصفاته العليا مما يُسَبِّحُ العبد به ربه وكأنه يَسْبِحُ في بحور لا حدَّ لها من التمجيد والتقديس والكمال والعظمة والجلال.

ومن أجل هذه المعاني السامية التي تدل عليها كلمة سبحان الله وبحمده وسبحان الله العظيم وما تحمله من ثِقَلٍ عَظِيمٍ في السمو والقداسة له سبحانه يتكرم الإله الكريم على عصاة عبیده التائبين إليه تعالى الراجعين إلى كنفه سبحانه، فيثقل بها موازينهم فتطيش وتخف وتُمحى بها ذنوبهم ومعاصيهم.

وإنَّ ثِقَلَ هَاتِيْنِ الْكَلِمَتِيْنِ فِي الْمِيْزَانِ مَشْرُوْطٌ بِالتَّحْلِيِّ بِالتَّقْوَى - كسائر الأدعية والأذكار- قال الحافظ في الفتح : قال الإمام ابن بَطَّال: والفضائل الواردة في الذكر إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال في الطهارة من الحرام والمعاصي، فلا تظنن أن من أدمن على الذكر وأصر على ما شاء من شهواته وانتهك دين الله وحرماته أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين ويبلغ منازلهم لكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾¹⁸⁸.

فيجب على المؤمن أن يتحلى بالتقوى التي هي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ثم يكثر من مختلف الأذكار الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنها هاتان الكلمتان الحبيبتان إلى الرحمان الخفيفتان على اللسان الثقيلتان في الميزان، فلقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت كزبد البحر ﴾، وعند الترمذي بسندٍ حسنٍ ﴿ من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له شجرةً في الجنة ﴾، وهذا ما يدل على سمو وعدالة وقسط الحق سبحانه في وزن أعمال عباده وأقوالهم يوم القيامة.

فهرس

3	محمد الخامس و تأسيسه لنظام جامعة القرويين
6	استفادة بعض الدول الإفريقية من النظام
12	الدراسة الأولى
15	الكلمة السواء
16	الدعوة إلى الإسلام بالحكمة
16	الكلمة الأحسن
16	ديانات السماء كلها خير
17	دعوة الرسل عامة
17	أمره ﷺ بأن لا يضر أحداً من خلق الله
18	وصف التوراة لنبي الإسلام
19	الدعوة إلى الله وإلى العمل الصالح
21	الاعتراف المتبادل بين جميع الرسل وأممهم
23	مرونة الإسلام حتى مع كفار قريش عبدة الأصنام
23	تزوج النبي ﷺ بأمة حبيبية بنت أبي سفيان
25	مرونة الإسلام حتى مع مشركي قريش ومُشركاته
26	كلمة الإرهاب ومعناها المُحرّف
27	إما المعاقبة بالمثل أو الصبر بدون معاقبة
28	من سُمِّوا أخلاق النبي عليه السلام
29	سُمِّوا عدالة الحق جل وتقدس في حُكمه بين مخلوقاته في الدُّنيا
33	إرادة الله تعالى وحكمته فوق كل إرادة وحكمة
34	ثناء الحق سبحانه على اليهود الذين آمنوا بنبي الإسلام
37	بعض أسماء من آمن من اليهود في أول البعثة
37	عبد الله بن سلام
38	عالم كبير من اليهود قرأ الكتب السماوية فأسلم منهم ثلاثة

39	ثناء النبي ﷺ على عبد الله بن سلام
40	ومن علماء اليهود الذين سبقت لهم السعادة كعب الأحمبار
41	ومن اليهود الذين سبقت لهم من الله تعالى الحسنى وهب بن مُنَّبِه
42	عناية الإسلام ومحافظته على دور عبادة الديانات الأخرى
45	الدراسة الثانية
45	القرآن واللغة العربية
49	وجوب المحافظة على اللغة العربية
49	معنى ذكر الرحمان
50	الرباط بين القرآن والعربية
51	محاربة الكفار للقرآن ولغته
53	المخرج من الفتن كتاب الله
54	بيان قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾
55	فما معنى قوله تعالى: "يَعِشْ" ؟
56	وما معنى قوله تعالى: ﴿ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾
61	عواقب الفاحشة
62	التطفييف خديعة وخيانة
65	الدراسة الثالثة :
65	كل من أساء لغيره، استحق العقوبة من ربه
66	سوء الكافر والمنافق وعقوبته
68	سوء المومن وعقوبته
74	الدراسة الرابعة
74	لكل غادر يوم القيامة لواء لغدرته
76	صيغ نصوص الحديث كما في صحيح مسلم
84	الدراسة الخامسة :
85	الحديث الذي افتتح به الإمام البخاري صحيحه
92	حديث الختم

للتذكير فإن ترقيم الآيات
القرآنية الواردة في هذا الكتاب
تم تبعا للمصحف الشريف
برواية حفص عن عاصم .
(الرواية المعتمدة في بلاد المشرق)

الطبعة الأولى
سنة 2005
جميع حقوق الطبع محفوظة